الكيد في القرآن الكريم

بقلم الدكتور / يحيى محمد يحيى
الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد بالكلية
كلية اللغة العربية بأسيوط

وينتظم هذه المسائل :

١ ــ دوران اللفظة في اللغة واستعمالاتها في القرآن الكريم •

٢ ــ معنى كيد الله تعالى وأتباعه وصوره الخمس •

٣ ــ معنى كيد الباطل وأهله وصوره التسع •

٤ ــ معنى كيد المرأة وصوره الثلاث •

دوران اللفظة في اللغة ودلالاتها :

الكيد ، كلمة جارية على ألسنة المتخاصمين والمتحاربين وعلى ألسنة الشامتين والحاقدين • وتجري كذلك على ألسنة أهل الخير واصلاح مستهينين بها ومستعينين بالله تعالى ، عليها وعلى أهلها •

وتنبعث تلك الكلمة اثر خصام أو خلاف أو بغض للمكيد ، وهنا يحاول الكائد أن يستعمل كل وسيلة للايقاع بمن يكيد له ، فيتخابث ويتماكر ويتحايل ويجتهد ، كل ذلك في معالجة دائبة وتتبع لا يهدأ • سواء دبر ذلك بباطل أو بحق ، وسواء أراد سوءا أو حسنا • ولوحظ أن الاطلاقات على تلك الكلمة في اللغة ، تدور حول معنى بذل الجهد من الكائد وافراغ ما في وسعه لتتحقق بغيته في المكيد •

ففي اللسان لابن منظور نجد قولهم : « الكيد من المكيدة »

والكيد : الخبث والمكر »(١) . وذلك مشعر بأن الكيد فيه لون خفاء ، وفيه كشف لغير المراد ، وصولا الى الغاية فى نفس الكائد من جهة ، وتضليلا للمكيد حتى يقع فى المحظور من جهة أخرى .

ومما قالوه كذلك : « وكل شىء تعالجه فأنت تكيده »(٢) . وهذا يعنى أن الكائد يتتبع المكيد كما يتتبع المعالج المريض ويلازمه حتى تتم الغاية المرجوة وهذا قول يكشف عن مدى الحرص والملازمة بين الكائد والمكيد وان انفرد الكائد برسم الخطوط ونسج الأعمال لتقع آثارها وأثقالها على المكيد فتحدث به ما يسر الكائد ويسبغ عليه البهجة والخفة .

وقد ينصرف الكيد على ارادة السوء للمكيد وهنا نجدهم يقولون: « وفى حديث عمرو بن العاص : ما قولك فى عقول كادها خالقها ؟ . وفى رواية : تلك عقول كادها بارئها . أى أرادها بسوء »(٣) . ومن هنا كثر جريانها فى قصد الايذاء وايقاع الضرر وانزال العقاب .

ونجد — كذلك — قولهم : « والكيد : الاحتيال والاجتهاد ، وبه سميت الحرب كيدا ، وهو يكيد بنفسه كيدا أى يجود بها »(٤) وهذا يعنى أن الكائد يصرف عزمه وهمته ويسخر حيلته وجهده فى الايقاع بالمكيد ولو أدى ذلك الى دفع نفسه وروحه فى سبيل تلك الغاية .

ويقول أهل اللغة : « والكيد : التدبير بباطل أو حق »(٥) .وهذه اشارة لما يكتنف الكيد من حسن اعداد وتجهيز وسابق تنظيم وتنسيق بباطل من العبد ، أو بحق من الرب ، وبذا يسهل نسبته الى الله تعالى دون تعتيم على المراد من تلك النسبة .

(١،٢،٣،٤) راجع ذلك فى لسان العرب لابن منظور مادة « كيد » .

(٥،٦) راجع ذلك فى اللسان .

ويضيفون : « والكيد : القيء ، والكيد : الحيض ، والكيد : الحرب »(٦) • وهذه الاطلاقات الثلاثة تلتقى فى معنى المعاناة وضرورة المعالجة وشدة التحمل ودوام الاجتهاد حتى البرء والسلامة والعافية والظفر • ومما سبق نرى أن :

الكيد بالنسبة للانسان ، بذل جهد وافراغ وسع بكل السبل والحيل والايهامات حتى يتغلب الكائد على المكيد ويتحقق مراده فيه •

أما بالنسبة لله تعالى ، فكيده : تدبير متقن واعداد وتجهيز ملائم للرد على الطغاة والمعتدين •

وبذا يكون للكلمة مدلولها اللغوى الذى يتسع لنسبتها للانسان تارة ، ولخالق الانسان تارة أخرى • وهو بعينه ما حملته الينا آيات القرآن الكريم التى وردت فيها تلك اللفظة •

ورودها واستعمالاتها فى القرآن الكريم : وردت كلمة « الكيد » ومشتقاتها فى القرآن الكريم ، فى تسع وعشرين آية وعلى جهات ثلاث هى :

(أ) ما ينسب فيه الكيد الى الله تعالى أو نبى من أنبيائه ، وذلك فى خمس آيات • وتعنى اللفظة فى هذا المقام ، : التدبير المتقن والاعداد المناسب للرد على الكافرين والمعتدين •

(ب)ما ينسب فيه الكيد الى أهل الكفر والعصيان ، وذلك فى عشرين آية ويصرف معنى الكيد فيها الى الاجتهاد وافراغ الوسع فى الايقاع بأهل الله وعباده •

(جـ) ما ينسب الى النساء فى بعض أحوالهن ، وعندما يتعرضن لما يثيرهن ويهيجهن ، وذلك فى أربع آيات • وتصرف كلمة الكيد فيها

الى معنى التخابث والتفاكر والتلاطف مع المكيد بغية تحقيق المراد وتزوله على الرغبة .

ويلاحظ على تحريك هذه الآيات التسع والعشرين أمور ثلاثة :

الأول : أن أكثر صور الكيد ورودا فى القرآن الكريم ، هى التى تنبعث من أهل الباطل ضد أهل الحق والدين ، اذ هى تفوق ثلثى الآيات جميعها

الثانى : ما ينسب فيها الى الله تعالى لا يقع الا بعد طول امهال وجميل صبر وعظيم حلم منه عز وجل .

الثالث : ما يصدر من النساء هو أدق وألطف وأخفى أنواع وصور الكيد ، لذا وصفه الله بالعظم لعظم أثره وخطر نتائجه ولطف جريانه.

وبعد هذه المقدمة التى عرضت لدوران الكلمة فى اللغة ، ثم لورودها فى القرآن الكريم وجهاتها الثلاث التى خرجت عليها،ها نحن نبدأ فى العرض والدرس البلاغى للجهة الأولى من هذا البحث وهى جهة « كيد الله تعالى وكيد أتباعه » .

الجهة الأولى فى هذا الباب :

« الكيد المسند الى الله تعالى والى أحد أنبيائه » .

سبق أن ذكرنا أن الكيد فيه ايهام للمكيد على خلاف ما يظهره الكائد له حتى لا يفسده المكيد وحتى يصل الكائد الى بغيته دون عائق أو مانع أو حائل وبهذا يكون الكائد عاجزا عن اظهار ما يريد حتى لا يواجه بما لا يستطيع دفعه ومنعه .

فهو يحتال فى وصول الضرر الى المكيد . وبهذا المعنى يكون

مفهوم الكيد غير لائق بجلال الله وعظيم قدرته وغلبته وهيمنته على كل شيء ، فليس على الله حجر أن يخفى ما يريد ايقاعه أو أن يتظاهر بخلاف ما يريد •

وعلى هذا ، فلابد من ضابط للكيد الصادر عن الله تعالى يكون غير متجاف مع قدر الله تعالى وعظمته •

وسبق أن ذكرنا من اطلاقات اللغويين عن الكيد بأنه التدبير بباطل أو حق • وقلنا ان هذا الضابط يتناسب مع كيد الله فهو تدبير وبحق أى اعداد وتجهيز للظالمين بحق ومن غير ظلم بل هو تدبير حسن لوقف مظالمهم وانهاء فسادهم •

لذا نجد العلامة الرازى يعرف الكيد وهو يشرح آية من سورة الطور فيقول : الكيد هو فعل يسوء من نزل به وان حسن ممن صدر منه • فهو يريد أن يقول : ان الكيد فعل يؤذى ويضر المكيد ولكنه ان كان الكائد هو الله تعالى أو أحد أنبيائه فهو الفعل الحسن لما يترتب عليه من محاسن ومنافع • بخلاف الصادر عن غالب الناس البعيدين عن فهم الشرع والدين ، فكيدهم يجلب الأضرار ويوسع دوائر الشرور •

ولكن ، اذا كان الكيد فى حقيقته اللغوية — كما ذكر الألوسى — أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه وتريده فكيف يفهم اسناده الى الله تعالى أو صدوره منه ؟ مما لا خفاء فيه أن اسناد الكيد الى الله تعالى ليس بمعناه الحقيقى فى اللغة لعدم لياقته بجلال الله وصفاته وحتى لا يشترك — جل وعظم — مع عباده فى وصف العجز والخوف من العاقبة •

وعلى ذلك فوروده آنذاك يكون ورودا مجازيا وليس حقيقيا وعلى صورة من أربع هى :

الأولى : صورة المجاز بالاستعارة لعلاقة المشابهة بين الصورة التى خـرج عليها تدبـير الله وإعـداده وبين الكيد الحقيقى الذى هو اظهار ما فيه نفع مع ارادة ضده بالمكيد .

فالظالم والعاصى والكافر ينظر الى امهال الله له وحلمه عليـه على أنه ترك له وغفلة عنه لينعم بما يستطيع ويتلذذ بما يقدر عليـه مع أنه فى الحقيقة استدراج واملاء يعقبه انتقام . فالاملاء والامهال كونا حـائلا ـ حجب الرؤية الحقيقية ـ يشبه الحائل الذى يشـغل ويلهى به الانسان الكائد المكيد حتى لا يتنبه له فيفسده عليه .

الثانية : صورة المجاز بالاستعارة التمثيلية حيث يتمثل صنيع الله بالمكيد على هيئـة مماثلة ومشـابهة بصنيع الانسـان الكائد لأخيـه الانسان فتشبه هيئة بهيئة وصنيع من أحداث وأفعال بصنيع ممـاثل ومشابه من أحداث وأفعال . ولله المثل الأعلى .

الثالثة : صورة المجاز المرسل الذى علاقته بين الحقيقى والمجازى علاقة اللزومية حيث يتجـوز بذكر الكيد ويراد لازمه وهو الاتقـان وحسن التـدبير .

الرابعة : صورة المجاز العقلى وذلك لعدم قبول العقـل لجريان اسناده بمعناه الحقيقى الى الله تعالى لما فيه من شائبة العجز وخوف العاقبة ومشابهة الحوادث .

وكذلك الحال مع أنبيائه تعالى ـ عليهم السـلام ـ فحينما يكيدون ، يكون كيـدهم بحق وليس بباطل ، ويكون ـ كذلك ـ كيدا مجـازيا وليس بحقيقة ، فهم مأمورون من قبـل الله فلا عجز فيهم ولا خوف من عاقبة تعتريهم ، بل صنيعهم مندرج تحت معنى التدبـير وحسن الملاقاة ومناسبة الرد على الطغاة والمعتدين .

وسبق أن أشرنا الى أن آيات هذه الجهة خمس آيات هى :

١٨٣ من الأعراف ، ٧٦ من يوسف ، ٥٧ من الأنبيـاء ، ٤٥ من القلم ، ١٦ من الطـارق •

ونصوص الآيات ـ على التوالى ـ هى :

١ ـ قول الله تعالى فى سورة الأعراف : « وأملى لهم ان كيدى متـين » • وهى مسـبوقة بقوله تعـالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمـون » •

٢ ـ وقوله تعالى من سورة يوسف : «فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه كم استخرجها من وعـاء أخيه كـدنا ليوسف ما كان ليأخـذ أخاه فى دين الملك الا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفـوق كل ذى علم عليم » •

٣ ـ وقوله تعالى من سورة الأنبياء ، حكاية عن نبى الله ابراهيم عليه السلام : « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » •

٤ ـ وقوله تعالى من سـورة القلم : « وأمـلى لهم ان كيـدى متـين » • وهى مسـبوقة بقوله تعـالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمـون » •

٥ ـ وقوله تعالى من سورة الطارق : « وأكيد كيـدا » • وهى مسبوقة بقوله تعالى : « انهم يكيدون كيدا » • ومتلوة بقوله تعالى : « فمهل الكافرين أمهلهم رويدا » •

صدق الله العظيم

وبالنظر فى نصوص الآيات نلحظ أمورا منها :

١ ـ اسناد الكيد الى الله تعالى واضح وجلى فى الآيات « كيدى

ـ كدنا ـ كيدى ـ وأكيد » كما أن الآية الخامسة واضح فيها اسناد الكيد الى نبى الله ابراهيم « وتالله لأكيدن » •

٢ ـ جميع الآيات جاء فيها الكيد ليرد حقا أو ليظهر خيرا أو لينصر عقيدة فهو حسن ومرغوب فيه فى كل الحالات •

٣ ـ كيد الله تعالى فى آيات ثلاث رد على المكذبين بآياته والكافرين لآلائه وفى الرابعة مناصرة ومؤازرة لنبيه يوسف وفى الخامسة دفاع من نبيه ابراهيم عن العقيدة الصحيحة ورد ودحر للعقيدة الفاسدة •

٤ ـ لا يبدأ الله ولا رسله بالمكايدة بل يكيدون ردا ودفاعا وايقافا للفساد والشر •

٥ ـ متانة الكيد الالهى مؤسسة على الاستدراج والاملاء اللذين هما سبب للتورط فى الهلكة ، نعوذ بالله أن نكون ـ يوما ـ من المستدرجين •

والآن الى الدرس البلاغى المنبعث من الآيات الخمس :

أولا : آيتا الأعراف والقلم ، وهما قول الله تعالى :

« والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون•وأملى لهم ان كيدى متين » وقوله : « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون • وأملى لهم ان كيدى متين » •

فواضح من نص الآيتين أنهما يتوعدان المكذبين بآيات الله • وآية الأعراف وان كان مطلعها خبريا فهى لا تقل تخويفا عن بدء آية القلم بالاسلوب الانشائى •

فآية الأعراف بدأت بالمسند اليه موصولا لنكتة التعريف بصلته

حتى تعرف العلة من وعيده واستدراجه ومتانة التدبير له ، فالتكذيب بالآيات هو سبب الوعيد والاستدراج والاعداد لعقابه •

وآية القلم تكشف سبب الوعيد والتجهيز للعقاب وتخرجه فى صيغة كاشفة مصورة للحدث « من يكذب » ثم يضيف بعدا فى شرف المكذب به وهو الحديث بالاشارة المعظمة له حتى تجمع بين عظيم لا يعرف قدره وبين مكذب به يعد له العذاب ومن حيث لا يعلمون • وذلك كناية بليغة عن اقحامهم فى هلكة تقضى عليهم وهم سادرون فيؤخذون على غرة • وذلك امعان فى تعذيبهم وحرمانهم دون اعلام •

وايراد الكيد فى الآيتين ايراد مجازى ويترجح كونه استعارة لما بين الكيد الحقيقى من جهة ، والاستدراج والاملاء اللذين يراد بهما الكيد المجازى من جهة أخرى ، من مشابهة فى كون كل منهما احسان فى الظاهر ، خذلان فى الحقيقة ، أو كون كل منهما لطف فى الظاهر ، قهر فى الباطن •

ومما قاله الزمخشرى فى آية الأعراف : « وأملى لهم — عطف على : سنستدرجهم وهو داخل فى حكم السين • ان كيدى متين — سماه كيدا لأنه شبيه بالكيد من حيث انه فى الظاهر احسان وفى الحقيقة خذلان »(٧) •

فقد استعير الكيد لعلاقة المشابهة بينه وبين صنيع الله بالقوم •

والعلامة الرازى يحدد الغرض من الآية ثم يشرح معنى الاستدراج والاملاء فيقول : « أعاد ذكر المكذبين بآيات الله تعالى وما عليهم من الوعيد فقال : « والذين كذبوا بآياتنا » وهذا يتناول جميع المكذبين »(٨) ويضيف : « وأما قوله : سنستدرجهم — فالاستدراج الاستفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة »(٩) •

---

(٧) الكشاف ج ٢ ص ١٣٣ •

ويضيف : « ويحتمل أن يكون هذا اللفظ مأخوذا من الدرج وهو لف الشيء وطيه جزءا فجزءا »(١٠) .

وهذا معناه الأخذ الشديد والتعرض لما لا طاقة للعبد به فسواء كان بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال أو كان بمعنى لف الشيء وطيه ، فهو في الحالين واقع على غرة ومأخوذ بهما العبد فجأة اذ كيف يتنبه من هو آخذ في الاستصعاد الذى يجلب التلذذ والتشهى . أو من هو آخذ في الاستنزال الوئيد الذى لا يعرف فيه سكون من حركة ولا يستشعره المستدرج .

وكذلك كيف يستطيع دفعا من يطوى أمره طيا ويلف لفا ويقال له ها أنت ومآلك ومصيرك . فينقلب فرحه غما وسروره غما كما هو الحال مع المكيد كيدا حقيقيا يصور له الأمر على الحسن فيفجؤه القبح والخبث .

ويضيف العلامة الرازى « فالمعنى : : سنقربهم الى ما يهلكهم ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون »(١١) . وعن الاملاء يقول : « والاملاء في اللغة : الامهال واطالة المدة ونقيضه الاعجال . فمعنى: وأملى لهم — أى وأمهلهم وأطيل لهم مدة عمرهم ليتمادوا في المعاصى »(١٢) .

ويلمح العلامة أبو السعود ختم الآية بهذا التوكيد « ان كيدى متين » فيقول : « ان كيدى متين — تقرير للوعيد وتأكيدا له . أى قوى لا يدافع بقوة ولا حيلة »(١٣) .

ويلمح صورة الاستعارة في لفظة الكيد فيقول : « فتسميته كيدا

(٨،٩،١٠،١١،١٢) التفسير الكبير للرازى جـ ١٥ ص ٧٣ ، ٧٤ .
(١٣) تفسير أبى السعود جـ ٣ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

لما أن ظاهره لطف وباطنه قهر »(١٤) • وبذا يتشابه المعنى المجازى بالحقيقى سالف الذكر » •

أما آية القلم فيذكر الزمخشرى وجه الشبه وعلاقة المشابهة بين المعنى الحقيقى والمجازى للكيد فيقول : « وسمى احسانه وتمكينه كيدا كما سماه استدراجا لكونه فى صورة الكيد حيث كان سببا للتورط فى الهلكة »(١٥) •

ويجلى العلامة الألوسى الرابطة والعلاقة فى تلك الاستعارة فيقول : « وتسمية ذلك كيدا وهو ضرب من الاحتيال ، لكونه فى صورته حيث انه سبحانه يفعل معهم ما هو نفع لهم ظاهرا ، ومراده عز وجل به الضرر لما علم من خبث جبلتهم وتماديهم فى الكفر والكفران »(١٦) •

ويجلى الألوسى تلك الكناية المنبعثة من قوله تعالى : « من حيث لا يعلمون » والتى هى الأخذ على حال من الغفلة التامة أو هى التزيين والالهاء حتى يقع العذاب : يقول الألوسى : « من حيث لا يعلمون — أنه استدراج بل يزعمون أن ذلك ايثار لهم وتفضل على المؤمنين مع أنه سبب لهلاكهم • وأملى لهم — وأمهلهم ليزدادوا اثما ، وهم يزعمون أن ذلك لارادة الخير بهم »(١٧) •

وينقل العلامة الشهاب ما ذكره السابقون ويوضح الاستعارة فى لفظة الكيد فى الآية • فالعلامة البيضاوى قال : « وانما سمى انعامه استدراجا بالكيد لأنه فى صورته » • وهنا يعلق الشهاب قائلا : « أى أطلق مجازا على انعامه لأجل الاستدراج كيدا لأن ذلك الانعام لما ذكر فى صورة الكيد ، لأن حقيقة الكيد ضرب من الاحتيال

---

(١٤) ابو السعود ج ٣ ص ٢٩٨ •
(١٥) الكشاف ج ٤ ص ١٤٧ ، ١٤٨ •
(١٦،١٧) الألوسى ج ٢٩ ، ص ٣٦ •

والاحتيال أن تفعل ما هو نفع وحسن معاملة ظاهرا وتريد به ضده . وما وقع من سعة أرزاقهم وتطويل أعمارهم احسان عليهم ونفع ظاهرا والمقصود به الضرر لما علم من خبث جبلتهم وتماديهم فى الكفر والكفران فذلك موقع لهم فى ورطة التهلكة ، وهو المراد منه »(١٨) .

ثانيا : آية يوسف : وهى قول الله تعالى :

« فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف .. الخ الآية » .

وهذه الآية تقبل فيها لفظة « كدنا » أن تكون خارجة على سبيل المجاز بالاستعارة . وأن تكون استعارة تمثيلية . وأن تكون مجازا عقليا علاقته السببية،ولا تقبل أن تكون مجازا مرسلاأو حقيقة لغوية لأن اسناد الفعل « كاد » الى ضمير المعظم نفسه وهو الله تعالى يجعلها الى الاستعارة المفردة أقرب ، على معنى « دبرنا وصنعنا » فالعلاقة هى المشابهة بين الكيد الحقيقى والكيد المجازى المراد هنا وهذه المشابهة أقرب الى روح الآية من أى علاقة أخرى ، يمكن أن تندرج تحت علاقات المجاز المرسل .

وكذلك ، يمتنع كونها حقيقة لغوية لامتناع صرف المعنى واسناده الى الله تعالى وهو الاحتيال والايهام على المكيد حتى لا يدافع أو يقاوم .

وتقبل ، فوق الاستعارة المفردة ، أن تكون استعارة تمثيلية على تشبيه هيئة بهيئة ، فتشبه هيئة صنيع الله وتدبيره لصالح نبيه يوسف عليه السلام ، بهيئة وصنيع الكائد الحقيقى وهو يحتال ويتلطف ويتخفى حتى يوقع بغيته ويحقق مراده فى المكيد .

---

(١٨) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ج ٨ ص ٢٣٣ .

كما أنها تقبل أن تكون مجازا عقليا فى الاسناد لعلاقة السببية لأن الكائد الحقيقى وفى الأصل والسبب هو الله تعالى والكائد المباشر والقائم بالفعل والمنفذ له والمأمور به هو يوسف عليه السلام • ولما كانت روح القصة فيها العرض من كل جانب وفيها مجموعات من الأعمال تقع من كل طرف « بين اخوة يوسف وأبيهم من جهة ، ويوسف والعاملين معه من جهة » كان حملها على الاستعارة التمثيلية أقرب لروح المعنى وتصور الأحداث • والناظر الى الاسناد « كدنا » فى الجملة يكتفى بالمجازية العقلية التى تفصل بين الاسناد الحقيقى والمجازى فى جملة واحدة • مع ابقاء وقبول جريان المجاز اللغوى (الاستعارة) وصلاح القول به •

ومما ذكره المفسرون الأئمة قول الزمخشرى « كذلك كدنا — مثل ذلك الكيد العظيم كدنا ليوسف يعنى علمناه اياه وأوحينا به اليه»(١٩) والعلامة القرطبى يذكر أن المراد بالفعل « كدنا » : صنعنا ودبرنا ، يقول : « وكدنا — معناه صنعنا وعن ابن عباس : دبرنا ، وابن الأنبارى أردنا • قال الشاعر :

كادت وكدت وتلك خير ارادة
لو عاد من عهد الصبا ما قد مضى(٢٠)

أما العلامة الألوسى ، فهو يقرأ ذلك كله وفوقه ويصوغ تلك المفاهيم ويعرض تلك اللفتات فى تتابع بليغ بين استعارة فى اللفظة وبين استعارة فى الهيئة وبين المجازية العقلية ويمنع أن يكون الكيد جاريا على حقيقته اللغوية فيقول : « كذلك — أى مثل ذلك الكيد العجيب وهو ارشاد الاخوة الى الافتاء المذكور باجرائه على ألسنتهم

---

(١٩) الكشاف ج ٢ ص ٣٣٥ •
(٢٠) القرطبى ج ٩ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ •

وحملهم عليه ، بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا »(٢١) .

ويضيف ما نحن بصدده فيقول : « كدنا ليوسف ـ أى صنعنا ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التى رتبها من دس السقاية وما يتلوه ، فالكيد مجاز لغوى فى ذلك »(٢٢) . وهذا هو التصريح بالاستعارة .

ثم يضيف ما هو ممتنع فى الجريان قائلا : « والا فحقيقة وهى أن توهم غيرك خلاف ما تخفيه وتريده وهو محال عليه تعالى »(٢٣) .

ثم يستطرد فى ذكر بقية الأوجه الجائزة بلاغة فيقول : «وقيل ان ذلك محمول على التمثيل ، وقيل ان فى الكيد اسنادين : بالفحوى الى يوسف عليه السلام ، وبالتصريح اليه سبحانه ، والأول حقيقى والآخر مجازى »(٢٤) .

ويجلى المرحوم سيد قطب دقة التدبير الالهى الذى الهمه الله لنبيه يوسف من خلال قوله تعالى « كدنا ليوسف » . فيقول : « قال فما جزاؤه ان كنتم كاذبين ؟ » وهنا ينكشف طرف التدبير الذى ألهمه الله يوسف ، فقد كان المتبع فى دين يعقوب أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيرا أو رقيقا فى مقابل ما يسرق . ولما كان اخوة يوسف موقنين بالبراءة فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق . ذلك فيتم تدبير الله ليوسف وأخيه . فطبقها يوسف عليهم عندما وجد صواع الملك فى رحل أخيه »(٢٥) .

ثالثا : آية الطارق وهى قوله تعالى :

« وأكيد كيدا » مع سبقها بقوله « انهم يكيدون كيدا » وهى

(٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤) تفسير روح المعانى للألوسى ج ١٣ ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢٥) الظلال ص ٢٠١٩ ، ٢٠٢٠ .

تقبل أن تكون لفظة « أكيد » استعارة تبعية أو استعارة تمثيلية على تشبيه هيئة بهيئة لأن صنيع الله واستدراجه وامهاله للقوم فى صورة انعام وترك وتوسعة يوما بعد آخر يشبه بهيئة من يحتال ويتلطف ويصنع فى الخفاء ما يعينه على الايقاع بالمكيد والنيل منه •

والاستعارة التمثيلية أرجح لقربها من تصوير الصنيع الالهى بالقوم ، يقول الزمخشرى : « انهم — أى أهل مكة ، يعملون المكايد فى ابطال أمر الله واطفاء نور الحق ، وأنا أقابلهم بكيدى من استدراجى لهم وانتظارى بهم الميقات الذى وقته للانتصار منهم »(٢٦) •

وذكر الألوسى نص الزمخشرى وكذلك ذكره البيضاوى ، ويعلق الشهاب فيقول مجليا وجهى المجاز فى لفظة « الكيد » : « فالكيد هنا استعارة تبعية أو تمثيلية بتشبيه امهال الله لهم ليستدرجهم بالكيد »(٢٧) •

رابعا : آية الأنبياء :

وهى حكاية عن نبى الله ابراهيم : « وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين » •

والكيد هنا مسند الى نبى الله اسنادا مجازيا على سبيل الاستعارة حيث استعير الكيد للتحقير والتهوين واظهار عجز الأصنام عن دفع الضر أو جلب النفع • أو على سبيل المجاز المرسل الذى علاقته اللزومية حيث تجوز بالكيد عن لازمه وهو الحرص وتجشم المكاره فى كشف حقيقة هذه العقيدة الفاسدة والمعبودات التافهة •

---

(٢٦) الكشاف جـ٤ ص ٢٤٢ ، والألوسى مثله جـ٣٠ ص ١٠٠/١٠١ •
(٢٧) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى جـ ٨ ص ٣٤٨ •

وميلها الى الاستعارة التبعية أقرب الى روح المعنى وتصوير ما قد عزم عليه ابراهيم عليه السلام •

يقول فى ذلك العلامة الشهاب : « الكيد فى الأصل : الاحتيال فى ايجاد ما يضر مع اظهار خلافه ، وهو يستلزم الاجتهاد فيه فتجوز به عنه هنا اما استعارة أو استعمالا له فى لازمه »(٢٨) •

وعندما قال البيضاوى — « وما فى التاء من التعجب لصعوبة الأمر وتوقفه على نوع من الحيل » قال الشهاب معلقا : « صعوبته للخوف من عاقبته والحيل فى اخفاء آلة الكسر ونسبته لغيره »(٢٩) •

الجهة الثانية فى هذا الباب :

« كيد الباطل لأهل الحق » •

وهذه الجهة تضم عشرين آية تنتظم الصور والصنائع التى تصدر من أهل الباطل ليكيد بها أهل الحق والخير ولو كانوا أنبياء ورسلا •

والآيات العشرون تتحرك فى جهتين أو شكلين هما :

الأول : شكل العداوة والجفاء لأهل الله تعالى وعباده الصالحين وذلك فى سبع آيات هى :

١٢٠ من آل عمران ، ٧٦ من النساء ، ١٩٥ من الأعراف ، ١٨ من الأنفال ، ٥٥ من هود ، ٣٩ من المرسلات ، ١٥ من الطارق •

والملاحظ فى أقوال المفسرين ولقطاتهم فى هذه الآيات أنها آيات تتكامل وتتآزر لتعطى صورة متوازنة وشاملة لكل مناحى الصراع بين أهل الله أهل الخير والصلاح ، وأهل الباطل والشر والفساد لذلك يمكن عرض هذه الآيات السبع على النحو التالى :

(٢٨، ٢٩) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ج ٦ ص ٢٥٩ •

١ ــ آية تحكى سنة من سنن الله فى بلاء المؤمن ودحر الكافر والكائد للمؤمن وهى الآية ١٨ من الأنفال •

٢ ــ آية تضيف على اللفظة السابقة أن كيد الباطل مردود عليه بكيد من الله تعالى ، حماية لعباده الطيبين وايقافا للفساد ودحرا للمفسدين • وتصور ذلك الآية ١٥ من الطارق •

٣ ــ أدرك الأنبياء والمرسلون الأمرين السابقين لذلك كانوا لا يبالون بكيد الباطل وصنيعه ضدهم فهم منصرفون لأداء رسالتهم تاركين الله تعالى أن يدافع عنهم ويرد على من يكيد لهم • وتحكى هذا الادراك آيتان هما :

١٩٥ من الأعراف ، ٥٥ من هود •

٤ ــ ما على المؤمنين ــ والحالة هذى ــ الا واحد من أمرين : اما يتصدوا لذلك الكيد متوكلين على الله تعالى مع تبشير الله لهم بالغلبة على عدوهم • واما أن يتجنبوا الكائدين من أهل الباطل مع تسلح بالصبر على ما يرضى الله والتقوى على ما نهى الله عنه وبذلك ينشغلون بما ينفعهم ويتركون الله تعالى الرد على الغوغائيين والمرجفين من أهل الباطل • مع تبشير الله لهم بعدم تأثير الكيد فيهم •

والتصرف الأول تحكيه الآية ٧٦ من النساء والتصرف الثانى تحكيه الآية ١٢٠ من آل عمران •

٥ ــ تقريع واستهزاء لأهل الباطل فى الآخرة ليجمع على كيدهم ودحرهم من الله فى الدنيا وذلك تحكيه الآية ٣٩ من المرسلات •

الثانى : ويخرج فيه الكيد من أهل الباطن لأهل الحق فى صور طائشة وتصرفات حمقاء تعبر عن عجز وخفة وحنق ثم تنتهى بالفشل والخيبة • وذلك فى ثلاث عشرة آية هى :

٥ ، ٥٢ من يوسف ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٩ من طه ، ٧٠ من الأنبيـــاء • ١٥ من الحج ، ٩٨ من الصافات ، ٢٥ ، ٣٧ من غـــافر ، ٤٢ ، ٤٦ من الطور ، ٢ من الفيـــل •

ويمكن عرض تلك الآيات مقسمة ومتناسقة على النحو التالى :

١ ــ ما خرج فى صورة قتل أو احراق أو هدم وآياته ست هى : ٢٥ غافر ، ٤٢ من الطور ، ١٥ من الحج ، ٧٠ من الأنبياء ، ٩٨ من الصـــافات ، ٢ من الفيـــل •

٢ ــ ما خرج فى صورة تأله بجهل وبلادة ، أو فى خيانة خلقية ، أو فى خيانة عقدية ، وآياته : ثلاث هى :
٣٧ من غافر ، ٥٢ من يوسف ، ٤٦ من الطور •

٣ ــ ما خرج فى صورة حســـد وبغى أو فى صورة سحر وزيف • وآياته أربع هى : ٥ يوسف ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٩ من طه •

والآن الى الشق الأول من تلك الجهة وهو الذى يضم سبع آيات ويتحرك فى أربع نقاط نعرض لها ــ بالتتابع والتسلسل ــ عرضـــا وافيا وشـــاملا •

النقطـــة الأولى :

وهى تحكى سنة من سنن الله فى بلاء المؤمن ودحر الكافر والكائد للمؤمن ، وتصورها آية ١٨ من الأنفال وهى قول الله تعالى « ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين » • وهى مسبوقة فى الآية ١٧ بقول الله تعالى : « وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ان الله سميع عليم » •

وبكشف العلامة الزمخشرى عن تلك السنة وذلك القصد والغرض،

من نشوب العداوة والحرب بين أهل الحق وأهل الباطل حتى يفر المؤمن الى ربه وحتى تتكسر شوكة الضلال وتريح أهل الحق فيعرف المؤمن وينجلى أمر الكافر والعاصى •

يقول الزمخشرى « ذلكم ــ اشارة الى البلاء الحسن ومحله الرفع أى الغرض ذلكم • وأن الله موهن ــ معطوف على ذلكم يعنى أن الغرض ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين »(٣٠) •

وكلام الزمخشرى يحوى لفتات بلاغية تعلى من شأن ذلك القصد وهذا الغرض وتلك السنة • وهذا مستفاد من لام البعد التى تلى حرف الاشارة لينضم الى اعادة الذكر تفخيم واعلاء لشأن المذكور ، ولا عجب فلا أعظم وأرفع من مقاصد الله تعالى فى صنائعه وبدائعه مع خلقه لاسيما بين الفريقين المتخاصمين مدى الحياة : المؤمن والكافر، المطيع والعاصى •

كما أن وصف البلاء للمؤمن بالحسن ، فيه طمأنة للمؤمن وتهدئة له وشرح صدر يزيل ما قد يخالط قلبه من ضيق • كما أن وقوع «مؤمن» خبرا للناسخ المؤكد ليضفى على كيد الكائدين للمؤمنين صفة الهزال والضعف والخور • ويزيد من تصوير ذلك الفهم مقابلته للبلاء الحسن الواقع للمؤمن •

والعلامة الرازى يذكر وسائل الله وطرقه فى توهين كيد الكافرين حتى تتكشف معالم الطمأنة وأسباب الهدأة عند المسلم المؤمن •

يقول الرازى « توهين الله تعالى كيدهم يكون بأشياء ، باطلاع المؤمنين على عوراتهم ، والقاء الرعب فى قلوبهم ، وتفريق كلمتهم •

---

(٣٠) الكشاف ج ٢ ص ١٥٠ •

ونقض ما أبرموا بسبب اختلاف عزائمهم • قال ابن عباس : ينبىء رسول الله ويقول : انى قد أوهنت كيد عدوك حتى قتلت خيارهم وأسرت أشرافهم(٣١) •

والعلامة أبو السعود يذكر ما قاله الزمخشرى ويضيف رأيا بلاغيا نحويا آخر فى عودة اسم الاشارة • اذ يرى أنه يمكن أن يكون عائدا على القتل والرمى • ولكنى أرى فى عودته الى البلاء الحسن أوقع فى نفس المؤمن لأن ذكر القتل والرمى مما لا تنشرح له النفس لكنه حينما يخرج فى ثوب ملفوف بوصف الحسن يلاقى ارتياحا ويحفز على ملاقاة العدو •

يقول أبو السعود : « وقيل المشار اليه القتل والرمى والمبتدأ الأمر أى الأمر ذلكم أى القتل »(٣٢) •

النقطة الثانية :

الرد على كيد العصاة بكيد من الله تعالى يتولى فيه دحرهم ويريح به أهله وعباده الصالحين وتصور ذلك الآية ١٥ من الطارق وهى قوله تعالى « انهم يكيدون كيدا » • فيرد الله عقبها بقوله مدافعا ومسارعا « وأكيد كيدا » وأين كيد العبد من رد الرب ؟ وهذا الرد من الله يسبغ على نفس المؤمن الهدأة والطمأنة ويؤكد له أن له ربا مدافعا وحاميا• لا سيما اذا كان أضعف عددا وعدة من عدوه الكافر أو العاصى •

يقول الزمخشرى فى الآية « انهم — يعنى أهل مكة ، يعملون

---

(٣١) تفسير الرازى ج ١٥ ص ١٤١ •
(٣٢) تفسير أبى السعود ج ٤ ص ١٤ •

المكايد فى ابطال أمر الله واطفاء نور الحق ، وأنا أقابلهم بكيدى من استدراجى لهم وانتظارى بهم الميقات الذى وقته للانتصار منهم »(٣٣) .

ودقة الأداء القرآنى تنبعث من المقابلة التامة بين الفعل المؤكد بالمصدر بنفس الفعل مؤكدا بمصدره ليترك للعقل المفكر أن يتخيل مقارنة أو موازنة بين هذين الأمرين المتساويين فى الصياغة وأنهما متباعدان فى القدر والشأن فالفعل والرد على قدر الفاعل وان انخلع عليهما لفظة واحدة . فاسناد الكيد الى الكافرين « بواو الجماعة » فيه عجز العبيد ووهن الضعيف ، بينما اسناد الكيد الى ضمير ذى الجلالة والهيبة « وأكيد » مما يشيع جوا من الجلال والخوف وأخذ الحذر حتى تناسب مع قدر فاعله ومنشئه .

والعلامة الألوسى يقف عند تنكير « كيدا » وأنه وان أفاد العظم فى جانب الكافرين فان تنكيره فى جانب الله يفيد بأنه عظيم متين لا يمكن رده اذ لا غالب على أمره ولا يستدرج الا هو . يقول الألوسى : « انهم يكيدون كيدا — أى عظيما حسبما تفى به قدرتهم . وأكيد كيدا — أى أقابلهم بكيد متين لا يمكن رده حيث استدرجهم من حيث لا يعلمون ، أو أقابلهم بكيدى فى اعلاء أمره واكثار نوره من حيث لا يحتسبون »(٣٤) .

وذكر الشهاب والبيضاوى ما قدم به العلامة الزمخشرى وصقله العلامة الألوسى (٣٥) .

ومن آية الأنفال ١٨ المتقدمة ، وتلك الآية (١٥ ، ١٦) من الطارق فهم الأنبياء والمرسلون عليهم السلام بأن كيد الكافرين والعصاة لا وزن له لسببين :

---

(٣٣) الكشاف جـ ٤ ص ٢٤٢ .

(٣٤) روح المعانى جـ ٣٠ ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٣٥) جـ ٨ ص ٣٤٨ من حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى .

الأول : أنه هين هزيل بتصريف وتحريك الله له كما ذكرت آيـة الأنفـال .

والثانى : أن الله تكفل بالرد عليه ودحره .

ومن هنا كانت النقطة الثالثة التى تحكيها الآية ١٩٥ من الأعراف، ٥٥ من هـود .

النقطـة الثـالثة :

عدم مبالاة أنبياء الله ورسله بكيد الكائدين من الكفار والعصـاة والآيتان اللتان تحكيان ذلك هما :

١٩٥ من الأعراف ويقول الله فيها هاديا رسوله محمدا ﷺ أن يستهزىء ويسخر بأصنام القوم ولا يبالى بتخـويفهم اياه وما ذلك الا لوثوقه فى عصمة الله له . نص الآية : « ألهم أرجل يمشون بهـا أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعـين يبصرون بها ، أم لهـم أذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » .

وهى مسبوقة بالآية ١٩٤ والتى تحثهم على التدبر واعادة النظر فى أمر معبوداتهم فهى مخلوقة مثلهم . ثم جاءت هذه الآية (١٩٥) لتهون من شأن تلك المعبودات وأنها أقل من العابدين لها شأنا وقدرا فلا أرجل تمشى بها ولا أيد ولا أعين ولا آذان . وبذا فليجتمع العابد والمعبود وليصنعا ما بدا لهما من كيد فلا مبالاة بهما .

ومما ذكره شيخ المفسرين وقطب البلاغيين فى تفسير القرآن ، العلامة الزمخشرى قوله فى الآية ١٩٤ : « ان الذين تدعـون من دون الله ــ أى تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله ــ عباد أمثـالكم . وقوله : عباد أمثالكم ، استهزاءا بهم أى قصارى أمرهم أن يكونوا

أحيـــاء عقلاء • فان ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم »(٣٦) ويضيف متناولا الآية (١٩٥) قائلا : « ثم أبطل أن يكونوا عبـــادا أمثالهم فقال : ألهم أرجل يمشون بها ••• » والمعنى : والذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم • قل ادعوا شركاءكم ــ واستعينوا بهم فى عـــدوانى • ثم كيدونى ــ جميعا أنتم وشركاؤكم ، فلا تنظـــرون • فانى لا أبالى بكم »(٣٧) ويضيف : « ولا يقول هذا الا واثق بعصمة الله وقد كانوا خوفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك »(٣٨) •

وجلى فى مطلع الآية ذلك الاستفهام الانكارى التـــوبيخى الذى يتكرر فى جملهـــا وطياتها امعـــانا فى تقريع القوم وتبكيتهم على مر الزمان • وزاد من أثرها البلاغى ايراد تلك التبكيتات اثر التوكيدات المتتالية فى الآية التى تسبقها على أن الأصنام مخلوقات وعبـــاد الله لا آلهة تعبد من دونه •

ونقتطف كلمات من العـــلامة الرازى يشـــيع فيها قبح القـــوم ويكشف غباءهم فى عبادة هذه الجمادات التى هى من خدم الانســـان ومسخراته فيقول « اعلم أن هذا نوع آخر من الدليل فى بيـــان أنه يقبح من الانسان العاقل أن يشتغل بعبادة هذه الأصنام وتقريره••• » ويضيف : « واذا ثبت هذا ظهر أن الانســـان أفضل بكثـــير من هذه الأصنام ، بل لا نسبة لفضيلة الانسان الى فضل هذه الأصنام ألبته ، واذا كان كذلك فكيف يليق بالأفضل الأكمل الأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس الأدون الذى لا يحس منه فـــائدة البتة ، لا فى جلب المنفعـــة ولا فى دفع المضرة »(٣٩) •

أما العلامة أبو السعود فقد نوه بأثر الاستفهام البلاغى فى صدر

(٣٦،٣٧،٣٨) الكشاف جـ ٢ ص ١٣٨ •

(٣٩) تفسير الفخر الرازى جـ ١٥ ص ٩٢ •

الآية وتكريره ثم سبقه فى الآية التى تتقدمها بالأمر التعجيزى « فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين » • وبذا تتقرر عدم المبالاة بهم والتهوين من شأنهم وشأن معبوداتهم •

يقول أبو السعود « وقوله تعالى « ألهم أرجل يمشون بها — » الخ تبكيت اثر تبكيت مؤكد لما يفيده الأمر التعجيزى من عدم الاستجابة ببيان فقدان آلاتها بالكلية ، فان الاستجابة من الهياكل الجسمانية انما تتصور اذا كان لها حياة وقوى محركة ومدركة وما ليس له شىء من ذلك فهو بمعزل من الأفاعيل بالمرة »(٤٠) • ويضيف : « وقد وجه الانكار الى كل واحدة من هذه الآلات الأربع على حدة تكريرا للتبكيت وتثنية للتقريع واشعارا بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها كاف فى الدلالة على استحالة الاستجابة(٤١) •

أما الآية الثانية فى هذا المقام فهى الآية (٥٥ من هود) وهى تحكى عدم مبالاة نبى الله هود عليه السلام وهى قوله تعالى « من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون » • وهى مسبوقة بقوله تعالى : « ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون » ومثلوه بقوله تعالى : « انى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربى على صراط مستقيم » •

فالآية (٥٥) تحكى عدم مبالاته عليه السلام بكيدهم مجتمعين مع معبوداتهم وقد تقدمها محاولة تخويفه من آلهتهم • وتثنيت بذكر سبب طمأنته ووثوقه فى السلامة وذلك من حسن توكله على الله الآخذ بناصيته كل شىء •

(٤٠،٤١) تفسير أبى السعود جـ ٣ ص ٣٠٦ .

وادراك شجاعة أهل الله تعالى على لسان نبى الله هود ، تتجلى من مواجهة قومه الغلاظ الشداد وبمفرده وحده يقول الزمخشرى : « وقد دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد لا يبالون بالبهت ولا يلتفتون الى النصح ولا تلين شكيمتهم بالرشد »(٤٢) • ويضيف : « من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا الي اراقة دمه يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقته بربه وأنه يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالبهم »(٤٣) •

ولذلك ، كان من البلاغة العالية أن يرد عليهم غير متجاهل لما هددوه به فهو يربط رده بوعيدهم امعانا فى تهييجهم ودحرا لطغيانهم فهو يبدأ تحديه لهم بالفاء التفريعية قائلا : « فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون » • فاء « ثم صيغة الأمر التعجيزية والمحيرة للقول ثم توكيد كلامه وعدم مبالاته بلفظة « جميعا » ، ثم يبلغ التحدى ذروته بقوله « ثم لا تنظرون » •

يقول الزمخشرى « فكيدونى جميعا — أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون من غير انظار فانى لا أبالى بكم وبكيدكم ولا أخاف معرتكم وان تعاونتم على »(٤٤) •

ولا عجب فقد أخرج لهم سبب عدم مبالاته بتوكله الثابت والكائن من قديم ، على الله تعالى ، وزاد من ذلك خروجه مسبوقا بحرف التوكيد وصياغته على الماضى امعانا فى وجوده القديم الممتد والثابت ثم وصف هذا الاله العظيم المتوكل عليه بأنه هو الذى يتعهده ويتعهدهم بالعناية والرزق • وهذا أدق فى لفت أنظارهم الى عظمة المتوكل عليه وجاء بوصف الربوبية لأنهم لا ينكرونها بخلاف الألوهية التى تستدعى عبادة وتوحيدا • يقول أبو السعود « فكيدونى جميعا

(٤٢،٤٣،٤٤) الكشاف ج ٢ ص ٢٧٦ •

ـــ فالفاء تتفريع الأمر على زعمهم فى قدرة آلهتهم على ما قالوا »(٤٥) ويضيف : « وانما جيء بلفظ الماضى فى قوله : انى توكلت على الله ربى وربكم ـــ لكونه أدل على الانشـــاء المناسب للمقام وواثق بـــكلاءتى وحنظى من غوائلكم • ولا تقدرون على شيء مما تريدون فانى متوكل على الله »(٤٦) •

وعن دلالة كلمة الرب يقول أبو السعود استكمالا للســـابق : « وهو مالكى ومالككم لا يصدر عنكم شيء ولا يصيبنى أمر الا بارادته ومشـــيئته »(٤٧) •

النقطة الرابعة :

وهى مرشدة للمؤمنين عندما يكيدهم أهـــل الباطل والضـــلال فاما أن يتصدوا ويقاتلوا حين لا يجدى غير ذلك والنصر حليفهم ، واما أن يجابهوا كيدهم بمزيج من الصبر والتقوى ، فالصبر على كل ماهو طاعة لله ، والتقوى عن كل ما هو عصيان الله وبذا يصيرون كالملائكـــة وهنا لا يصيبهم أى أذى من كيد عدوهم • والوجه الأول تحكيه آية ٧٦ من النساء ، والوجه الثانى تحكيه الآية ١٢٠ من آل عمران •

ونص آية النساء يقول : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا » •

فكيد الشيطان هنا : الحرب والقتال لأهل الله • والله تعالى يحكى للمؤمنين فى أسلوب خبرى ثابت وواضح أن من كان وصفه وصـــلته فى سبيل الله فهو أهل نصرته وغلبته • بدلالة مجيء المسند اليه اسم

(٤٥، ٤٦، ٤٧) أبو السعود جـ ٤ ص ٢١٨ •

موصول ليتكشف شكله ووصفه من صلته بعده وان كان أهل الله هم المنصورون فعدوهم هو المغلوب والمهزوم • ويزيد من حث أهله تعالى الى ملاقاة عدوهم بهذه الصيغة « فقاتلوا » بلفظها ومعناها لتكتمل صورة الحث وبلاغة الترغيب فالصيغة أمر وطلب والمعنى قتال وجهاد ثم يعقب بالتقرير الثابت والقانون القائم قائلا : ان كيد الشيطان كان ضعيفا • هكذا بالصياغة المؤكدة وبايغال الوصف الموهن للكيد وانبعاثه — وما زال — منذ القدم ومن لحظة أن كان فى الماضى البعيد •

يقول الزمخشرى « رغب الله المؤمنين ترغيبا وشجعهم تشجيعا باخبارهم أنهم انما يقاتلون فى سبيل الله فهو وليهم وناصرهم ، وأعداؤهم يقاتلون فى سبيل الشيطان فلا ولى لهم الا الشيطان ، وكيد الشيطان للمؤمنين الى جنب كيد الله للكافرين أضعف شىء وأوهنه » (٤٨) •

أما العلامة الرازى فيحدد مسار النتائج فى العداوات والحروب على المقاصد والدواعى ومقاصد المؤمنين اعمار واصلاح ودرء مفاسد• كما يوضح بلاغة الفعل « كان » المتقدمه على وصف كيد الشيطان بالضعف فيقول :

« اعلم أنه تعالى لما بين وجوب الجهاد بين أنه لا عبرة بصورة الجهاد بل العبرة بالقصد والداعى » (٤٩) • ويضيف : « وفائدة ادخال — كان — فى قوله : كان ضعيفا — للتأكيد لضعف كيده • يعنى أنه منذ كان ، كان موصوفا بالضعف والذلة » (٥٠) •

---

(٤٨) الكشاف جـ ١ ص ٥٤٣ •

(٤٩، ٥٠) تفسير الرازى جـ ١٠ ص ١٨٣/١٨٤ •

وأبو السعود يوضح بلاغة الفاء الداخلة على صيغة الأمر الحاثة على القتال ثم بلاغة عدم التعرض لبيان قوة الله التى ستنصر أتباعه فيقول :

« والفاء فى قوله تعالى « فقاتلوا أولياء الشيطان لبيان استتباع ما قبلها لما بعدها كأنه قيل : اذا كان الأمر كذلك فقاتلوا يا أولياء الله أولياء الشيطان » (٥٠) • ويضيف : « ولم يتعرض لبيان قوة جنابه تعالى ايذانا بظهورها » (٥٢) •

هذا كله ، عندما يكون كيد الباطل وصل الى مرحلة الحرب والجهاد بالسلاح والعتاد والرجال • أما ان كان فى صورة عداوات كلامية وتصرفات كيدية لا ترقى الى صورة الحرب السابقة ، فان الله تعالى يحث عباده على التحلى بصفتى الصبر والتقوى وذلك لضمان عدم تأثرهم بكيد الباطل •

وآية ذلك هى قوله تعالى فى الآية ١٢٠ من آل عمران « ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط » •

والآية تكشف عن كيد فى صورة شماتة فى أهل الخير وفى صورة حزن واساءة اذا ما مسهم خير وفى صورة فرح وسرور حينما تتمكن منهم المصائب يقول الرازى « اعلم أن هذه الآية من تمام وصف المنافقين وأنهم مع ما لهم من الصفات الذميمة والأفعال القبيحة مترقبون نزول نوع من المحنة والبلاء بالمؤمنين » • ويضيف : « والمراد من الحسنة ههنا منفعة الدنيا على اختلاف أحوالها فمنها صحة البدن

(٥٠،٥١) أبو السعود جـ ٢ ص ٢٠٢/٢٠٣ .

وحصول الخصب والفوز بالغنيمة والاستيلاء على الأعداء وحصول المحبة والألفة بين الأحباب • والمراد بالسيئة أضدادها » (٥٣) •

ويحكم أبو السعود على القوم بتناهى العداوة بسبب ما يقع منهم فيقول : « قوله تعالى : ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها — بيان لتناهى عداوتهم الى حد حسدوا ما نالهم من خير ومنفعة ، وشمتوا بما أصابهم من ضر وشدة » (٥٤) •

ويشرح أبو السعود هذا التناهى فى العداوة مؤسسا على صياغة ودلالة كل من المس والاصابة واستعمالهما سواء كان حقيقة أم مجازا فيقول : « وذكر المس مع الحسنة والاصابة مع السيئة اما للايذان بأن مدار مساءتهم أدنى مراتب اصابة الحسنة ومناط فرحهم تمام اصابة السيئة • واما لأن المس مستعار لمعنى الاصابة » (٥٥) •

وعن وسيلة التوقى وضمان العافية والسلامة من أثر كيد العدو فى حال كهذا يشرح الزمخشرى قيام ذلك على فضيلتى الصبر والتقوى والمراد بهما فيقول : « وان تصبروا على عداوتهم وتتقوا ما نهيتم عنه من موالاتهم • أو : وان تصبروا على تكاليف الدين ومشاقه وتتقوا الله فى اجتنابكم محارمه كنتم فى كنف الله فلا يضركم كيدهم » (٥٦) •

وهذا فهم جيد وشامل لسد كل ثغرة ينفذ منها الكيد سواء باستمراره أو تجدده بعد ايقافه • فان العائد للموالاة للكائد يفتح

---

(٥٣) الرازى جـ ٨ ص ٢٠٢ •
(٥٤) أبو السعود جـ ٢ ص ٧٧ •
(٥٥) أبو السعود جـ ٢ ص ٧٧ •
(٥٦) الكشاف جـ ١ ص ٤٦٠ •

على نفسه باب الكيد المحتمل • كما أن المتباعد عن طاعة الله تعالى يجلب على نفسه المكايد من قريب وبعيد •

وبذلك تكون هذه الآية بمثابة القانون الذى يكفل الأمان من كيد الأعادى ويضمن السلامة من شرورهم فالصبر بمعنى الكف عن كل ما يؤذى والتقوى بمعنى فعل كل ما يرضى هما صمام الخير كله •

يقول فى ذلك الزمخشرى « وهذا تعليم من الله وارشاد الى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى » (٥٧) •

ويعرض العلامة الرازى هذا القانون من زاوية المقابلة والموازاة بين عبادة العبد وطاعة ووفاء الرب وحفظه فيقول : « ومعنى الآية : أن كل من صبر على أداء أوامر الله تعالى واتقى كل ما نهى الله عنه كان فى حفظ الله فلا يضره كيد الكافرين ولا حيل المحتالين » (٥٨) • ويضيف : « وتحقيق الكلام فى ذلك هو أنه سبحانه انما خلق الخلق للعبودية كما قال : وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون • فمن وفى بعهد العبودية فى ذلك فالله سبحانه أكرم من أن لا يفى بعهد الربوبية فى حفظه عن الآفات والمخافات واليه الاشارة بقوله تعالى : ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب • اشارة الى أنه يوصل اليه كل ما يسره • وقال بعض الحكماء : اذا أردت أن تكبت من حسد فاجتهد فى اكتساب الفضائل » (٥٩) •

وبذا يتضح أن أهل الله هم أهل التقوى وأهل الصبر وأهل التواصى بالصبر والتقوى ، وأنهم بقدر التزامهم يكون وصول المسرات اليهم •

ومن هنا تتحرك حياتهم من مسرات الى مسرات حتى تختم بلقاء الله وجنته ورضوانه وهذا هو الفلاح الأكبر •

---

(٥٧) الكشاف ج ١ ص ٤٦٠ •

(٥٨، ٥٩) الرازى ج ٨ ص ٢٠٣ •

النقطة الخامسة :

وهى تضم الى هزيمة أهل الباطل ورد كيدهم الى نحورهم فى الدنيا تقريعا واستهزاءا فى الآخرة • وذلك مأخوذ من الآيـة ٣٩ من المرسلات وهى قول الله تعالى « فان كان لكم كيد فكيدون » •

وهى آية محكمة النسج بليغة النظم تحكى مقولة الله فى الآخرة لأهل الباطل الذين كادوا لأهل الحق فى الدنيا ، وخرجت فى أسـلوب شرطى متماسك الأجزاء مترابط الصدر والعجز يترقب شرطه جزاءه ثم يخرج الجواب والعجز والجزاء فى صيغة انشائية طلبية معجزة وهازمة للمخاطبين وحول ذلك المعنى يقول الزمخشرى « فان كان لكم كيد فكيدون تقريع لهم على كيدهم لدين الله وذويه وتسجيل عليهم بالعجز والاسـتكانة » (٦٠) • ويضـيف ـ الى ذلك الاذلال وهذا التعجيز ـ الألوسى انسحاب تلك الاستكانة وذلك العجز وهذا التقريع على كل الكائدين للمؤمنين سابقين ولاحقين حتى يتجرع الجميـع العقاب وحتى يهنأ أهل الخير جميعهم بما صنعه ربهم فى الآخـرة بعد صنيعه معهم فى الدنيا •

يقول الألوسى « فان كان لكم كيد فكيدون ـ فان جميع من كنتم تقلدونهم وتقتـدون بهم حاضرون ، وهذا تقـريع لهم على كيدهم للمؤمنين واظهار لعجزهم » (٦١) •

الشق الثانى والشكل الآخر لكيد أهل الباطل لأهل الحق :

وهو كيد يخرج فى صورة مطعمة بالطيش والخفة وملىء بالحنق

---

(٦٠) الكشاف جـ ٤ ص ٢٠٥ •

(٦١) روح المعانى للألوسى جـ ٢٩ ص ١٧٧ •

والغيظ ثم ينتهى بالفشل والخيبة • وهذا الشق يضم ثلاث عشرة آية على النحو التالى :

(أ) كيد محكى فى صورة قتل أو حرق أو هدم وآياته ست •

(ب) كيد محكى فى صورة تأله بجهل وبلادة أو خيانة خلقية أو عقدية وآياته ثلاث •

(جـ) كيد محكى فى صورة حسد وبغى أو سحر وزيف ، وآياتـه أربـع •

ولنبدأ بالمجموعة الأولى التي تحكى الكيد من أهل الباطـل فى صورة قتل أو حرق أو هدم فنقول :

ان آيات هذه المجموعة ست : ثلاث منها تحكى قتـلا وازهاق روح بريئة واثنتان منها تحكى حرقا واهلاكا لبرىء ، وواحدة تحكى هدما لبناء مقدس عظيم •

ولا شك ، أن قتل الأبرياء ، لا سيما اذا كانوا أهل خير ومسالمة، عمل طائش وكذا محاولة حرقه أو اهلاكه ، وكذا هدم الشعار المقدس ومحاولة مسه بالسوء • وضابط الطيش فى الأفعال الثلاثة وجامعها هو تحويل النية وتغيير القصد من محاولة الافادة والانتفاع الى نيـة وقصد فى محاولة القتل والتدمير والقضاء على النافع المفيد •

والآيات الثلاث التى تحكى الكيد من أهل الباطل فى صورة قتل ومحاولة اهلاك لأهل الخير والبر والأبرياء من فعل ما يتطلب ذلك •

والآيات الثلاث هى :

٢٥ من غافر وهي قوله تعالى حكاية عن صنيع وكيد فرعـون وايذائه للمؤمنين الأبرياء « فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وماكيد الكافـرين الا فى ضـلال » •

والآية ٤٢ من الطور وهى قوله تعالى حكاية عن محاولة كفار مكة فى قتل النبى صلى الله عليه وسلم « أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون » .

والآية ١٥ من الحج وهى قوله تعالى ردا على المتعجلين وعدم الواثقين فى نصرة الله لنبيه وآله : « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » .

وبدراسة وفهم جو الآية الأولى ٢٥ من غافر نجد :

طيشا وحنقا وغيظا لا ينكر من فرعون بدليل صياغة الآية وتتابع تركيبها وتفصيلات معانيها ، فمجىء الحق من عند الله الحق يستوجب بشرا وسرورا وعقد مصالحة مع الله ورسله والمؤمنين لا أن يشاع التقتيل واستحياء النساء .

لذلك كان البوار والخزى وعدم الجدوى من كل كيد أراده فرعون « وما كيد الكافرين الا فى ضلال » هكذا بأسلوب القصر وبطريق النفى والاستثناء الذى يكثر وروده فى مقام الانكار وعدم التقبل ليدحر أمل فرعون وكل فرعون فى كل زمن ولينفى نفاذ الكيد من جهة ويثبت هلاكه من جهة أخرى فيضم توكيد الى توكيد واثبات على اثبات يشيع الهيمنة لله تعالى واجتثاث كيد الظالمين الكافرين يقول فى ذلك الزمخشرى « وكان فرعون قد كف عن قتل الولدان فلما بعث موسى وأحس بأنه قد وقع أعاده عليهم ، غيظا وحنقا وظنا منه أنه يصدهم بذلك عن مظاهرة موسى » ويضيف « وما علم أن كيده ضائع فى الكرتين جميعا » (٦٢) .

---

(٦٢) الكشاف جـ ٣ ص ٤٢٢، والرازى خلاصته تماما جـ ٢٦ ص ١٥٠

ويلمح أبو السعود ما فى الآية من اظهار فى موضع الاضمار وبلاغته التى تشيع الذم وتبين علة الاحباط للقوم فيقول : « واللام اما للعهد • والاظهار فى موقع الاضمار لذمهم بالكفر والاشعار بعلة الحكم أو اللام للجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا » (٦٣) •

لأن العهدية فى الكافرين تعيد الى الأذهان قوم فرعون بصنيعهم الآثم • والجنسية توسع مدار الكفر وتجعل لقوم فرعون المكان المعلى• فهم كافرون وباطل عملهم على أى من الحالين •

والآية الثانية ٤٢ من الطور يفسر فيها الكيد بالاجهاز على المكيد قتلا واخراجا وتقييدا ليقضى على دعوته وحركة أتباعه • والمقصود بالكيد فى الآية هو الرسول الكريم وقومه • والكائدون هم كفار مكة عندما اجتمعوا فى دار الندوة • ولكن حاق بصنيعهم كل خيبة وفشل•

« أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون » • والآية على ما تحمل من بلاغة التصوير وكشف ما فى نفوسهم من الرغبة الآثمة وكذلك من اظهار لوصفهم المشين والاتيان به صلة للموصول امعانا فى فضحهم ونشر قبيح وصفهم ، نجد اضافة الى ذلك هذا الأسلوب القصرى الذى طريقه التقديم وهو من قصر القلب الاضافى أى « هم المكيدون لا رسول الله وقومه الذين قصدوهم » والواقع والتاريخ يحكى خيبتهم وفشلهم مع نصر رسول الله وحفظه •

يقول الزمخشري « أم يريدون كيدا — وهو كيدهم فى دار الندوة برسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين • فالذين كفروا — اشارة اليهم ، أو أريد بهم كل من كفر بالله • هم المكيدون — هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم مكرهم » (٦٤) •

---

(٦٣) أبو السعود جـ ٧ ص ٢٧٣ •

(٦٤) الكشاف جـ ٤ ص ٢٦ •

ويجلي القصر ونوعه دون اشارة اليه ، العلامة الرازى فيقول: « والمراد من قوله (أم يريدون كيدا) : أم يريدون أن يكيدوك فهم المكيدون أى لا يقدرون على الكيد فان الله يصونك بعينه وينصرك بصونه » (٦٥) .

ويقول أبو السعود نحوا من ذلك « ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بما فى حيز الصلة من الكفر وتعليل الحكم به. أو جميع الكفرة وهم داخلون فيه دخولا أوليا » . ويضيف لمحة القصر فى الآية فيقول : « هم المكيدون — أى هم الذين يحيق بهم كيدهم أو يعود عليهم وباله لا من أرادوا أن يكيدوه وهو ما أصابهم يوم بدر » (٦٦) .

واصابتهم يوم بدر يعنى رد الكيد الى نحورهم وصاروا هم المكيدون لا رسول الله وقومه .

والآية الثالثة هي ١٥ من الحج « فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ» والمعنى كما ذكر أبو حيان « من كان يظن أن لن يرزقه الله فيعدل عن دين محمد لهذا الظن كما وصف فى قوله : وان اصابته فتنة انقلب على وجهه — فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فان ذلك لا يبلغه الا ما قدر له ولا يجعله مرزوقا أكثر مما قسم له » (٦٧) وهذا أحد رأيين فى عودة الضمير على الرزق فى قوله « ينصره » وقد يكون عائدا على الرسول الكريم والمعنى : « أن لن ينصر الله محمدا فى الدنيا باعلاء كلمته واظهار دينه » (٦٨) .

---

(٦٥) تفسير الرازى جـ ٢٨ ص ٢٦٦ .

(٦٦) أبو السعود جـ ط ص ١٥٢ .

(٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠) أبو حيان المجلد السادس ص ٣٥٧/٣٥٨ .

والسبب : هو الحبل . والقطع : هو الاختناق على معنى « من ظن غير ذلك فليمدد بسبب ويختنق وينظر هل يذهب بذلك غيظه ومنه المثل: دونك الحبل فاختنق ، يقال للذى يريد من الأمر ما لا يمكنه » (٦٩) وعن ربط الخيل بالفعل وما آل اليه ذلك الكيد من خيبة وفشل أرجعته لصاحبه ليكيد به نفسه يقول أبو حيان : « وسمى الاختناق قطعا لأن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه . وسمى فعله كيدا لأنه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره . أو على سبيل الاستهزاء لأنه لم يكد به محسوده انما كاد به نفسه » (٧٠) .

ويشرح المعنى بصفاء وايجاز العلامة البيضاوى فيقول : « وقيل فليمدد حبلا الى سماء الدنيا ثم ليقطع به المسافة حتى يبلغ عنانه فيجتهد فى دفع نصره أو تحصيل رزقه . فلينظر — فليتصور فى نفسه: هل يذهبن كيده ما يغيظ أى غيظه أو الذى يغيظه من نصر الله » (٧١).

الآية الرابعة والخامسة وهما : ٧٠ من الأنبياء ، ٩٨ من الصافات وهما قول الله تعالى حكاية عن صنيع وكيد القوم بنبيهم ابراهيم عليه السلام فآية الأنبياء تقول « وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ».

وآية الصافات تقول « فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين » .

ومعلوم من الآيات التى تسبق كل آية من السابقتين أن القوم بنوا له بنيانا وألقوه فى الجحيم ليقضوا عليه وعلى دعوته بدلا من أن يفيدوا فيها ويسعدوا بها وهذا هو مكمن الحمق والطيش ثم فوجئوا بأن الله نجاه وخسروا هم وأن الله أعلى قدره ورفعه وسفلوا هم وانحطوا وتتكير لفظة « كيد » فى الآيتين اشعار بنوعية هذا الكيد وأنه من نوع مسعور ومن لون بلغ الغاية فى التنكيل والاسفاف والمراد

---

(٧١) البيضاوى ضمن حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى جـ ٦ ص ٢٦٤ .

بتنكيره تعظيم شأنه وتهويل أمره فلا أفظع ولا أخطر من القاء نبى كريم فى نار عظيمة ولا جريرة له ولا سبب الا أن دعاهم الى الله تعالى • ثم بعد أن تحكى الآيتان ارادتهم الفظيعة تعقبان بأن رد الله كان أقوى بأن صيرهم الأخسرين وهو الفائز الناجي وصيرهم الأسفلين وهو عالى القدر مرفوع الجناب محفوظ الحمى • واسناد الجعل بمعنى التصيير والتحويل فى الآيتين الى ضمير المعظم نفسه دون غيره لاشاعة جو من الهيبة والاجلال يخيم على ذلك المقام ويرد على مقاصدهم الفظيعة •

يقول أبو حيان فى آية الأنبياء : « وأرادوا به كيدا — قيل هو القاؤه فى النار • فجعلناهم الأخسرين أى المبالغين فى الخسران وهو ابطال ما راموه » (٧٢) •

ويجلى أبو السعود ما ترتب على قهرهم من جانب نبيهم ، ثم ردهم عليه بهذا الكيد ثم اصدار الأمر الالهى الى النار لتكون مرفأ سلام وعافية يقول أبو السعود : فى آية الصافات « فأرادوا به كيدا — فانه عليه السلام لما قهرهم بالحجة وألقمهم الحجر قصدوا ما قصدوا لئلا يظهر للعامة عجزهم • فجعلناهم الأسفلين — الأذلين بابطال كيدهم وجعله برهانا نيرا على علو شأنه عليه السلام بجعل النار عليه بردا وسلاما » (٧٣) •

ويعطى العلامة الرازى كشفا لهذا البنيان الذى بنوه له وعلى لسان ابن عباس فيقول : « واعلم أن كيفية ذلك البناء لا يدل عليها لفظ القرآن ، قال ابن عباس : بنوا حائطا من حجر طوله فى السماء ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون وملأوه نارا فطرحوه فيها وذلك هو

---

(٧٢) البحر المحيط لأبى حيان المجلد السادس ص ٣٢٨ •
(٧٣) أبو السعود جـ ٧ ص ١٩٩ •

قوله تعالى : فألقوه فى الجحيم ، وهى النار العظيمة • قال الزجاج : كل نار بعضها فوق بعض فهى جحيم ، والألف واللام فى الجحيم يدل على النهاية والمعنى فى جحيمه أى فى جحيم ذلك البنيان » (٧٤) •

ويوضح المرحوم سيد قطب سر صنيعهم وهم على الباطل وأثر كلمة الحق على نفوسهم الفاجرة فيقول : « قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم — انه منطق الحديد والنار الذى لا يعرف الطغاة منطقا سواه عندما تعوزهم الحجة وينقصهم الدليل وحينما تحرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين » ويضيف جميل ما أعقب ذلك فيقول : « ويختصر السياق هنا ما حدث بعد قولتهم تلك ليعرض العاقبة التى تحقق وعد الله لعباده المخلصين ووعيده لأعدائهم المكذبين: فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين » (٧٥) •

الآية السادسة : وهى الآية ٢ من سورة الفيل « ألم يجعل كيدهم فى تضليل » • فأصحاب الفيل وقصة هدم الكعبة المشرفة هو المقصود بالتذكير هنا ، وكيدهم المراد به هدم الكعبة لكن الله أحبط أمرهم وقتل جيشهم • والآية تفتتح باستفهام تقريرى يخاطب به الرسول الكريم ليتبين قدرة الله وعزة بيته ودوام حفظه • وعن تصدير الآية بالاستفهام التقريرى ومآل الظالمين وخيبتهم واهلاكهم يقول الألوسى « ألم يجعل كيدهم فى تضليل : الخ بيان اجمالى لما فعل الله تعالى بهم• والهمزة للتقرير كما سبق ولذلك عطف على الجملة الاستفهامية ما بعدها ، كأنه قيل : قد جعل كيدهم فى تعطيل الكعبة وتخريبها وصرف شرف أهلها لهم ، فى تضييع وابطال بأن دمرهم أشنع تدمير » (٧٦)•

---

(٧٤) الرازى ج ٢٦ ص ١٥٠ •
(٧٥) الظلال ص ٢٩٩٣ •
(٧٦) الألوسى ج ٣ ص ٢٣٦ •

وعن بلاغة التعبير عن التدمير والاهلاك بالتضليل يقول الألوسى « وأصل التضليل من ضل عنه اذا ضاع فاستعير هنا للابطال » (٧٧) ودقة الاستعارة وجمالها يتجلى من اشعارها بمعنى الضياع والاذهاب والافناء حتى لا أثر له ولا غبار .

أى أن الله أنهى كيدهم وأبطله بمحو أثاره واذهاب رائحته . وهذا أبلغ من مجرد ذكر الابطال الذى لا يضفى على المعنى هذا التصوير فقد يقع الابطال ويبقى أثره ورسمه أو يقع فى جهة دون أخرى بخلاف التضييع والاذهاب والقضاء على الآثار للشىء .

أما المجموعة الثانية من الآيات وهى التى يخرج فيها الكيد فى صورة تأله بجهل وبلادة أو فى صورة خيانة خلقية شرفية أو فى صورة خيانة عقدية دينية أصيلة .

وآياتها ثلاث هى : ٣٧ من غافر ، ٥٢ من يوسف ، ٤٦ من الطور .

وآية غافر هى قوله تعالى حكاية عن فرعون « وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا فى تباب » ٣٦ ، ٣٧ من غافر .

وهذه الآية تحكى نفى الصانع وعدم وجود اله لهذا الكون فى كلام فرعون ، على رأى الرازى (٧٨) . وهو صنيع يدل على جهله بالله سبحانه ، كما يرى أبو السعود (٧٩) ولكن المرحوم سيد قطب (٨٠)

---

(٧٧) الألوسى ج ٣ ص ٢٣٦ .
(٧٨) الرازى ج ٢٧ ص ٦٥ .
(٧٩) أبو السعود ج ٧ ص ٢٧٦ .
(٨٠) الظلال ص ٣٠٨٢ .

يرى أن ذلك من قبيل الاستهتار والسخرية من جهة • والتظاهر بالانصاف والتثبت من جهة أخرى • وعلى كل حال فهو يعظم نفسه متجاهلا ومتبلدا وهى الصورة التى خرج عليها هذا الكيد الذى أحبطه الله وأهلكه •

ومسألة التأله فى تلك المقولة على لسان فرعون ترد من طلبه الصعود الى اله موسى الذى يزعم أنه كاذب ولا يكشف الاله والمعبود الا اله معبود حقيقى • ومسألة الجهل والبلادة تتأتى فى المقولة من اقفاله على قلبه حتى لا يدخل اليه نور الايمان مما أحاله الى متجاهل متبلد لا يملك الا الغطرسة أمام الهدى الالهى وادعاء الممتنع من الأشياء فكان المآل احباط كيده وفشل مهمته واهلاك مرامه •

وقد لاحظ المفسرون سريان التفخيم لما أراده وأمله فرعون حتى يحث هامان على التجاوب معه وحتى يشوق السامع اليه مع ما فى ذلك من استحالة وامتناع وتأبى•وما ذاك الا تمويه ومحاورة ومداورة كى لا يواجه الحق جهرة •

والتفخيم وارد من التكرار فى قوله « أبلغ الأسباب أسباب » يقول الزمخشرى : « ولو قيل لعلى أبلغ أسباب السموات لأجزأ فما فائدة هذا التكرار ؟ قلت : اذا أبهم الشىء ثم أوضح كان تفخيما لشأنه فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها ولأنه لما كان بلوغها أمرا عجيبا أراد أن يورده على نفس متشوقة اليه ليعطيه السامع حقه من التعجب فأبهمه ليشوق اليه نفس هامان ثم أوضحه »(٨١) •

ويختم أبو السعود كلامه « المنقول عن الزمخشرى » بقوله : « وما ذاك الا لجهله بالله سبحانه »(٨٢) •

(٨١،٨٢) الكشاف جـ ٣ ص ٤٢٨ ، والصرح البناء الظاهر ، وأسباب السموات : طرقها وأبوابها ومثله أبى السعود جـ ٧ ص ٢٧٧ •

ورد الله سبحانه على هذا الصنيع البليد كان اهلاكا وتبابا لذلك الكيد هكذا في أسلوب قصرى مؤكد بالنفى والاثبات • « وما كيد فرعون الا فى تباب » •

وآية الطور هى قوله تعالى حكاية عن الكافرين : « يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون » •

وكيدهم هنا ، هو عبادتهم الأصنام التى لن تنفعهم فى الآخرة كما لم تنفعهم فى الدنيا • وهذا من عدم الوفاء بالعهد الأزلى وتعد خيانة عقدية ومجافاة للفطرة السليمة • فكأنهم ما كادوا الا أنفسهم•

يقول أبو السعود : « يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا — أى شيئا من الاغناء »(٨٣) •

ويقول الرازى : « فقوله يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا أى عبادتهم الأصنام وقولهم:هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقولهم:مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى »(٨٤) •

ومما يجلى خيبة القوم ورد كيدهم الى نحورهم وأنهم خابوا عندما أشركوا بالله وانشغلوا بأصنام لا تنفع ولا تضر ، هذا التعبير البليغ فى الآية « يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا » وبلاغته آتية من الاتيان بحرف الجر « عن » مع امكان وجواز وصحة استعمال الفعل « يغنى » بدونه فيقال « يوم لا يغنيهم كيدهم » وذلك لأن القصد هو نفى دفع أقل ضرر عنهم مما يوحى بعظيم جهلهم وبوار سعيهم بخلاف: يوم لا يغنيهم أى لا ينفعهم فنفى دفع الضرر أدق وأليق بالتعبير عن الخسران من نفى احداث النفع فقد يحدث النفع ولكن لغير منتفع به كما هو الحال فى الآخرة وذلك على سبيل الفرض أنها تنفعهم • يقول

---

(٨٣) أبو السعود جـ ٨ ص ١٥٢ •

(٨٤) تفسير الفخر جـ ٢٨ ص ٢٧٢ •

فى ذلك العلامة الرازى : « يوم لا يغنى عنهم كيدهم ـ ولم يقل يوم لا يغنيهم كيدهم مع أن الاغناء يتعدى بنفسه ، افائدة جليلة وهى أن قول القائل أغنانى كذا يفهم منه أنه نفعنى • وقوله أغنى عنى يفهم منه أنه دفع عنى الضرر ، وذلك لأن قوله أغنانى معناه فى الحقيقة أفادنى غير مستفيد ، وقوله أغنى عنى أى لم يحوجنى الى الحضور فأغنى غيرى عن حضورى • فقوله : لا يغنى عنهم أى لايدفع عنهم الضرر • ولا شك ان قوله لا يدفع عنهم ضررا أبلغ من قوله لا ينفعهم نفعا »(٨٥) •

وآية يوسف هى قوله حكاية عن يوسف أو امرأة العزيز « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين » • ٥٢ من يوسف والكيد هنا عيب خلقى يتعلق بالسمعة والشرف والآية ان كانت محكية على أنها من كلام يوسف عليه السلام يكون الكيد بمعنى قصد الرذيلة والرغبة فى حصولها • وان كانت محكية على أنها من كلام امرأة العزيز يكون القصد من الكيد هنا هو الرمى بالرذيلة وعيب البرىء فعلى أى الحالين يصرف الكيد وينحو ناحية أخلاقية تتعلق بالعفة والسقوط وبالشرف والضعة •

وحينما تكون الآية محكية عن يوسف عليه السلام يكون المعنى: ذلك ـ اشارة الى التثبت والتشمر لظهور البراءة •

ليعلم ـ أى العزيز • أنى لم أخنه : بظهر الغيب فى حرمته وليعلم أن الله لا يهدى كيد الخائنين بمعنى : لا ينفذه ولا يسدده •

وهذه الجملة الأخيرة المؤكدة على أن الله لا يجرى ولا يوقع الغاية من كيد الخائنين ، تعد تعريضا من يوسف عليه السلام بامرأة العزيز التى خانت أمانة زوجها • وتعريضا كذلك بالعزيز الذى خان

---

(٨٥) تفسير الفخر جـ ٢٨ ص ٢٧١ •

أمانة الله حين ساعد زوجته على حبس يوسف مع ظهور الآيات التى تبرئه •

ولا يتغير شكل الكيد وانحصاره فى جو الرذيلة لأنه لما علم ببراءة يوسف فهم وقوع امرأته فى الخيانة وقصدها ، وسكوته على ذلك وانضمامه الى امرأته يحول كيده الى لون من ألوان الرذيلة وحب وقوعها من أهله (٨٦) •

وحينما تكون الآية محكية عن امرأة العزيز يكون تفصيلها كالآتى:

ذلك — أى الذى قلته وهو قولها : الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ، ليعلم — أى يوسف ، أنى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال الغيبه وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه • وما أبرىء نفسى — فانى قد خنته حين قرفته وقلته : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءا (٨٧) •

والآية فيها مجاز بالاستعارة فى قوله « لا يهدى كيد الخائنين » لأن الكيد لا يهدى وانما يمضى أو لا يمضى والتجوز وقع بيهدى بدلا من ينفذ ونفى بلا (٨٨) •

أما المرحوم سيد قطب فيعى أمرا دقيقا ويجلى ملمحا رفيعا فى الآية من خلال المقابلة والموازنة بين صنيع امرأة العزيز وهى تختال وتتهيأ لتفتن يوسف بجسدها ، وبين قولها على الملأ : أنا راودته عن نفسه • ثم قولها : ذلك ليعلم أنى لم أخنه أى يوسف بالغيب ثم قولها وأن الله لا يهدى كيد الخائنين •

(٨٦ ، ٨٧) راجع فحوى ذلك بالكشاف ج ٢ ص ٣٢٧

(٨٨) تأمل ما قاله الألوسى ج ١٢ ص ٢٦١ •

هكذا تحولت من فاتنة مفترسة الى مؤمنة مسبحة ، يكشف عن سر ذلك المرحوم سيد قطب أو يقلب هذين الصنيعين ليخرج بغاية قد تكون قصدتها زليخاء فيقول :

« يشى السياق بحافز آخر هو حرصها على أن يحترمها الرجل المؤمن الذى لم يعبأ بفتنتها الجسدية ، أن يحترمها تقديرا لايمانها ولصدقها وأمانتها فى حقه عند غيبته » (٨٩) .

وهى مقولة قوية وكشف مهم لأنه يعرى الرذيلة والسعى وراءها ويعلى من الفضيلة والحث على نيلها من مبدأ الأمر حفظا للمشاعر واقتناصا للشرف وتوفيرا للوقت وبقاء للسمعة المستورة .

وبذا تتأكد النهاية لكل كيد طلع ليغيظ الحق وأهله أن يقبر ويدفن ولا تتحقق الغاية منه .

المجموعة الثالثة من الآيات فى تلك الجهة ، وآياتها أربع يخرج الكيد فيها على صورة حسد وبغى أو على صورة سحر وزيف وكله من أهل الباطل يصدر ثم يحيق بأهله ويحفظ الله وينصر أهله من ذلك الكيد .

والآيات الأربع هى : ٥ من يوسف ثم ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٩ من طه .

وآية يوسف هى التى خرج وذكر فيها الكيد فى صورة حسد وبغى

وآيات طه الثلاث ذكر فيها الكيد وقد خرج فى صورة سحر وزيف

آية الحسد والبغى وانقلابها على رأس الحاسدين والباغين وهى الآية ٥ من يوسف وهى قوله تعالى « قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين » .

---

(٨٩) الظلال ١٩٩٥ .

والكيد فى الآية مراد منه الحسد الذى يحمل على كل ما لا خير فيه ، وقد كان ، والكن الله تعالى حقق مراده وحفظ يوسف وأعلى شأنه .

والآية فيها لمحات كثيرة يجدر الاشارة اليها :

١ ــ شبه كمال الاتصال المفتتحة به الآية لأن الجملة استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل : فماذا قال الأب بعد سماع هذه الرؤية العجيبة من ابنه ؟ فقيل : قال يا بنى لا تقصص ... الخ الآية .

وشبه كمال الاتصال لون بلاغى يظهر الترابط والتلاحم بين المتكلم والسامع وترقب السائل للمجيب لا سيما ان كان الكلام فى مهمات الأمور .

٢ ــ صورة التصغير الذى هو للتحبيب فى قوله « يا بنى » والذى يحكى قرب يوسف من روح أبيه الذى ينهاه أن يقص ما فيه علامات الخير وبشائر النبوة .

٣ ــ صورة التأكيد على كيد وحسد اخوته له بصيغة الفعل الظاهرة واخراجه على هيئة المضارع الذى يحكى ويصور الحدث ثم بالمصدر المؤكد من نفس المادة ثم باللام التى فى لك بين الفعل ومصدره « فيكيدوا لك » كل ذلك لحثه وبشدة على عدم قص ما رأى على اخوته

٤ ــ لمحة تأثير الشيطان وانسحابها حتى على أولاد الأنبياء مما يخفف من شدة المؤاخذة لهؤلاء الاخوة وأنهم ما صنعوا ذلك دون تأثير بين وظاهر العداوة من الشيطان .

يقول الزمخشرى فى الآية « عرف يعقوب دلالة الرؤيا على أن يوسف سيبلغه الله مبلغا من الحكمة ويصطفيه للنبوة ، فخاف عليه حسد

الإخوة وبغيهم » (٩٠) • ويضيف : « فان قلت : هلا قيل فيكيدوك كما قيل فكيدونى ؟ قلت : ضمن معنى فعل يتعدى باللام ليفيد معنى فعل الكيد مع افادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وأبلغ فى التخويف » (٩١) •

ويوضح هذا المعنى فى ايجاز العلامة القرطبى فيقول : « فيكيدوا لك كيدا ـ اى يحتالوا فى هلاكك لأن تأويلها ظاهر فربما يحملهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ » (٩٢) ويضيف : « واللام فى « لك » تأكيد كقوله ان كنتم للرؤيا تعبرون » (٩٣) • ومما ذكره العلامة الألوسى قوله : « قال يا بنى : ـ صغره للشفقه ويسمى النحاة مثل هذا تصغير التحبيب ويحتمل أن يكون لذلك ولصغر السن » (٩٤)• ويضيف : « والجملة استئناف مبنى على سؤال » (٩٥) • ويضيف : « فخاف عليه حسد الاخوة وبغيهم فقال له ذلك صيانة لهم من الوقوع فيما لا ينبغى فى حقه وان كان واثقا بأنهم لا يقدرون على تحويل ما دلت عليه الرؤيا » (٩٦) • ويضيف قائلا عن الاخوة « وان كانوا ناشئين فى بيت النبوة • والظاهر أن القوم كانوا بحيث يمكن أن يكون للشيطان عليهم سبيل ويؤيد هذا أنهم لم يكونوا أنبياء » (٩٧) •

آيات السحر والزيف ، وهى الآيات التى يذكر فيها الكيد وصورته سحر وزيف يموه به لأهل الحق والدين ثم يبوء بالفشل والخيبة على الكائدين • وآياته ثلاث هى ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٩ من طه •

ونصوصها على التتابع هى :

(٩٠ ، ٩١) الكشاف ج ٢ ص ٣٠٣ •

(٩٢ ، ٩٣) القرطبى ج ٩ ص ١٢٢ •

(٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧) الألوسى ج ١٢ ص ١٨١ : ١٨٣ •

قول الله تعالى « فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى » ، قوله تعالى : « فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى »، قوله تعالى : « وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى » •

والمتأمل فى كلام المفسرين حول الآيات الثلاث وفى تقليب المرادات منها يجد أن الآيات الثلاث تحوى هذه النقاط :

١ ــ أن الكيد فيها مراد به السحر وآلاته والساحرون له • وأنه حينما يشمل آلات السحر انما هو امعان وتمويل فى أثر السحر وحينما يطلق على الساحرين والسحرة انما هو مبالغة فى السحر البادى على أيديهم وصنائعهم فكأنهم هم السحر نفسه •

٢ ــ أن الحاث على هذا الكيد السحرى هو فرعون اللعين بغية التزييف على أهل الحق وصد أو تعطيل حركة الهدى لظل الناس فى ضلاله ولا يرون نورا أو خيرا • ولكن هيهات هيهات •

٣ ــ أن هذا الكيد السحرى فى حقيقته تزوير وتزييف وافتعال وتخييل ولذلك بعث الله نبيه موسى مبطلا بقدرة الله ذلك الوهم وهذا الزيف لأنه لا يقل الحديد الا الحديد •

وان كان القوم قد عرفوا من بداية الأمر أن موسى من قبل الله وأن سحره هو المهلك لأفاعيلهم وأنه منصور بقوة ليست سحرا وزيفا بل حقيقة ولا طاقة لهم بها • حتى ان المفسرين يقولون : عندما قال لهم موسى : ويلكم لا تفتروا على الله كذبا ، قالوا : ما هذا بقول ساحر •

٤ ــ أن ارشادات فرعون لهم ومغرياته للسحرة هؤلاء ، وتناصح بعضهم لبعض من أجل الغلبة على موسى بجمع كلمتهم وتوحيد رأيهم

ثم بعنايتهم — حتى — بوقفتهم صفا واحدا ليكونوا أهيب فى نظر الناظرين ، كل ذلك قد آل اليهم بالفشل الذريع وخر السحرة ساجدين لرب العالمين رب موسى وهرون وكاد الله ونبيه لفرعون وأتباعه فانه لا يفلح الساحر حيث أتى وأنهم افتروا وقد خاب — أزلا — من افترى .

فالآية ٦٠ من طه تحكى فى أسلوب خبرى حاسم دور فرعون فى تحريك هذا الكيد ، وذلك باسناد التولي والتكفل الى اسم صراحة « فتولى فرعون » ثم تعطف عليه شرح هذا التكفل والتعهد فنقول « فجمع كيده » أى جمع أهل كيده وأرباب الفتن والتعذيب والتزييف وهم سحرته وفى خلع الكيد على السحرة التابعين له ايماء الى شدة خطرهم وفظيع أفاعيلهم . ثم أتى . أى ثم وصل الى درجة الاستعداد للمبارزة.يقول أبو حيان فى الآية:«فتولى فرعون — أى معرضا عن قبول الحق أو تولى ذلك الأمر بنفسه،أو فرجع الى أهله لاستعداد مكايده،أو أدبر على عادة المتواعدين أن يولى كل واحد منهما صاحبه ظهره اذا افترقا . أقوال » (٩٨) . فهى أقوال أربعة تلتقي جميعها حول حصر الأداة الفاعلة واليد المحركة لهذا الطاغوت المتبلد والحاكم المتأله ، فرعون . ويضيف « فجمع كيده — أى ذوى كيده وهم السحرة ، وكانوا عصابة لم يخلق الله أسحر منها » (٩٩) .

يضاف الى تكوينهم النفسى وخبراتهم المكتسبة ما يحملونه من أدوات وآلات يقول البيضاوى : « فجمع كيده : ما يكاد به ، يعنى السحرة وآلاتهم » (١٠٠) .

(٩٨ ، ٩٩) تفسير البحر المحيط لأبى حيان المجلد السادس ص٢٥٤

(١٠٠) حاشية الشهاب على البيضاوى ج ٦ ص ٢١١ .

والآية ٦٤ من طه • وتخرج فى أسلوب انشائى طلبى يوجه الى فعل أمرين اثنين يعقبهما احساس بالفلاح والاستعلاء • وهذان الأمران والطلبان يدعوان الى اجماع الرأى للسحرة واصطفافهم على خط واحد ليهابهم ثم سريان مقدمة النصر وهى الاحساس بالفوز بعد هذين الأمرين •

يقول الزمخشرى : « فأجمعوا كيدكم ــ أى اجعلوه مجمعا عليه حتى لا تختلفوا • ثم ائتوا صفا ــ لأنه أهيب للرائى » (١٠١) ولا فرق بين أن يصدر هذا من فرعون أو من السحرة فيما بينهم فهو بتوجيه ورضاء فرعون يقول أبو حيان « قيل هو من كلام فرعون والظاهر أنه من كلام السحرة بعضهم لبعض » (١٠٢) •

وايلاء الأسلوب الخبرى للانشائى المكون من طلبين مترابطين ليوحى بمدى اهتمام وتنسيق المتكلم وترتيبه لما يجب أن يحدث حتى يجر وراءه النصر المؤكد بدليل « وقد أفلح اليوم من استعلى » أى أن التزامكم بالأمرين السابقين سينزلكم منزلا عاليا ويجعلكم من الفالحين أمام موسى وأخيه • وهى أحاسيس ومشاعر تنتاب أهل الباطل ويزينها الشيطان حتى تحدث المواجهة مع الحق الذى أعد الله له كل أسباب النصر •

والآية ٦٩ من طه : تحكى فى مطلعها أسلوبا انشائيا يحث الله تعالى نبيه موسى بالقاء ما فى يمينه لتلقف ما صنعوا ثم بعد هذا الاستخفاف بصنيعهم يؤكد الله لنبيه فى أسلوب قصر حاسم لا يقبل النقاش حتى من جانب السحرة « انما صنعوا كيد ساحر » ثم نفى نجاحهم وانتصارهم « ولا يفلح الساحر حيث أتى » •

---

(١٠١) الكشاف ج ٢ ص ٥٤٣ •

(١٠٢) البحر المحيط المجلد السادس ص ٢٥٦ •

والملاحظ فى تلك الكلمات الدقيقة المعبرة : ما صنعوا ــ كيد ساحر فكأن حربهم من صنع السحر ولا يمكن أن يسود التزييف والتخييل والوهم ويضعف الحق والصدق والوضوح .

يقول أبو حيان : « ومعنى صنعوا هنا : زوروا وافتعلوا » (١٠٣)

ويقول الزمخشرى : « كيد ساحر ــ وقرىء كيد سحر بمعنى ذى سحر أو ذوى سحر أو هم لتوغلهم فى سحرهم كأنهم السحر بذاته وبعينه » (١٠٤) .

وعن علة وسر افراد الساحر دون جمعه مع كثرتهم يقول الزمخشرى « لأن القصد فى هذا الكلام الى معنى الجنسية لا الى معنى العدد ، فلو جمع لخيل أن المقصود هو للعدد » (١٠٥) أى أن القصد على ابطال جنس السحر لا ابطال وهزيمة السحر المجمع عليه والصادر من جموع ، ولكن الجنسية تعنى اجتثاثه من أصله وحيثما وجد » .

الجهة الثالثة والأخيرة فى هذا الباب « كيد النساء وصوره » .

مما تجدر الاشارة اليه أن كيد النساء ، هنا هو ذلك الكيد الصادر والمنسوب الى النساء دون معونة من الرجال أو دون اشراك مع الرجال . وهذا يعنى أن كيد الباطل ــ فى الجهة السابقة ــ قد يكون للمرأة فيه دور ولكنه دور يلى دور الرجل فهو دور فرعى وتابع أما هنا فهو دور من أوله لآخره تابع من المرأة وليس مشتركا بالقدر القليل كما هو الحال ان وجد فى الجهة السابقة من هذا الباب .

ومن عجب أن يرد ــ فى القرآن الكريم ــ كيد النساء محصورا

---

(١٠٣) البحر المجلد السادس ص ٣٦٠ .
(١٠٤) الكشاف ج ٢ ص ٤٥٥ .

فى ناحية من قصة يوسف عليه السلام وهذا ان دل على شىء فانما يدل على أن كيد النساء لا يعرف ولا يظهر الا مجال طبيعتهن وأنوثتهن وما يتصل بها من اغراءات ومراودات •

فهن لسن أهلا لأن يظهر كيدهن فى صورة حقد أو حسد أو فى صورة حرب أو منازلة أو احراق واهلاك وهدم أو سحر وزيف أو قتل وتعذيب ، كما مر فى الجهة الثانية من هذا الباب • وان كان الواقع يحكى اشتراكا منهن فى شىء من ذلك فانما الجل الأكبر يقوم به الرجل من ناحية ومن ناحية أخرى تكون وراءه قصة حب تجمع بين هذا الرجل القائم بالمهمة ، وبين تلك المرأة المشتركة فينقلب دورها المزيف فى القتال أو نحوه الى حقيقة وهو دور الكيد الساعى الى التحايل والتخابث بغية تحقيق الغرض المشهور والمعروف عن كيد المرأة •

وبالتأمل فى نصوص الآيات الأربع وهى :

٢٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٠ من يوسف نجد أن الكيد دار حول معنى واحد وهو الخبث والدهاء ولطف الحيلة فى تزيين الرذيلة والاغراء والمراودة ثم براعة التخلص ودقة التصرف للخروج من ورطتهن •

والآية : ٢٨ تحكى لطف الحيلة وبراعة التخلص •

والآيتان : ٣٣ ، ٣٤ تحكيان الاغراء والمراودة •

والآية : ٥٠ تحكى الخبث والدهاء وتزيين الرذيلة •

والآية ٢٨ هى قول الله تعالى حكاية عما قاله الشاهد على زليخاء: « فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم »•

والقائل هنا هو العزيز — زوجها أو الشاهد لقوله تعالى وشهد

---

(١٠٥) الكشاف ج ٢ ص ٤٥٥ وحاشية الشهاب ج ٦ ص ٢١٥ •

شاهد من أهلها (١٠٦) • والمقول على لسانه : « انه من كيدكن » هكذا بأسلوة حاسم ومؤكد وهى مقولة تعد ــ كما يقول الألوسى : « تكذيب لها وتصديق ليوسف على ألطف وجه » (١٠٧) •

وأما المقولة الشهيرة « ان كيدكن عظيم » هكذا بوصفه بالعظيم وتوكيد هذا الوصف انما هو يكشف عن الدقة فى الأداء واللطف فى التعبير والحيلة البارعة فى التخلص • يقول الزمخشرى « عظيم ــ للطفه واجادته عندهن عن الرجال » (١٠٨) • ويقول القرطبى « لعظم فتنتهن واحتيالهن فى التخلص من ورطتهن » (١٠٩) •

اذ حاولت أن تنشىء من نقاء يوسف وصلاحه شابا خبيثا يدفع دمه وشعوره وتمزق ثيابه ليظفر ببغيته ، مع أن كل ذلك من صنعها ونسجها وما قولها « ما جزاء من أراد بأهلك سوءا » الا لمداراة الواقع وستر المكشوف والتخلص من الورطة • وهذا هو المصرف القريب لكلمة الكيد هنا •

وهذا طبع وخلق عريق للنساء جميعا وهى واحدة منهن بدليل عمومية •• الخطاب كما يرى الألوسى (١١٠) •

وقالوا ان عظمه آت من شدة تعلقه بالقلب وتأثيره فى النفس ولأنه يورث من العار ما لا يورثه كيد الرجال (١١١) •

والآيتان : ٣٣ ، ٣٤ من يوسف وهما قول الله تعالى الحاكى عن

---

(١٠٦) القرطبى جـ ٩ ص ١٧٥ •
(١٠٧) الألوسى جـ ١٢ ص ٢٢٤ •
(١٠٨) الكشاف جـ ٢ ص ٣١٥ •
(١٠٩) القرطبى جـ ٩ ص ٣١٥ •
(١١٠ ، ١١١) الألوسى جـ ١٢ ص ٢٢٤ •

الشدة التى وقع فيها يوسف عليه السلام من اجتماع النسوة عند امرأة العزيز وحثهن يوسف على المطاوعة وتزيين الفاحشة بدلا من السجن أو العذاب الأليم وأنه دعا الله أن يلطف به ولو بالسجن بدلا من هذا الفحش فكانت استجابة الله وصرف الكيد عنه • يقول الله تعالى « قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين • فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم » •

فبعد أن حكت الآية ٣٢ قبل هاتين الآيتين أن امرأة العزيز جمعت هؤلاء النسوة وجعلت يوسف يخرج عليهن وأعلنت أنه راودته عن نفسه فاستعصم وأنه اذا لم يطع سجنته وصيرته من الصاغرين هنا تأكد عليه السلام من تمسكها برغبتها فما كان منه الا أن يستجير بالله تعالى فقوله تعالى « السجن أحب الى مما يدعوننى اليه — دليل على أن النسوة دعونه ونصحنه وزين له مطاوعة زليخاء فآثر السجن » (١١٢) وهذا يدل على مضاعفة الهم وزيادة العبء فبدلا من واحدة تكيد له اجتمعن ضده كثيرات يحثنه على فعل الفاحشة بدلالة اسناد الفعل يدعو الى كون الجمع المؤنث •

ولكن — والحالة هذى — ليس له الا الله ويقولون ان يوسف عليه السلام لو طلب من الله العافية بدلا من السجن لعوفى ولكن البلاء معلق بالمخطئ فآثر السجن فسجن ولو طلب العافية لعوفى (١١٣) •

وقوله عليه السلام « والا تصرف عنى كيدهن » من باب التعرض للدعاء والفزع الى الله الذى هو فى قوة السؤال وكأنه قال : اللهم

---

(١١٢) الكشاف ج ٢ ص ٣١٨ •
(١١٣) الكشاف ج ٢ ص ٣١٩ • والقرطبى ج ٩ ص ١٨٤ •

أصرف عنى ما أنا فيه من كيد ، بدلالة ما بعده : فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن • والاستجابة لا تكون الا اثر دعاء وطلب (١١٤)•

والكيد المسند فى المرتين لنون الجمع المؤنث « كيدهن » فى الآيتين يرشد الى اصداره من جمع وهن النسوة اللاتى رأينه عند امرأة العزيز أو لمطلق النسوان أو لامرأة العزيز بضمير المعظم لاخفاء شأنها خوفا منها ولكن العموم أولى كما ذكر القرطبى (١١٥) •

وكما ذكروا أن اللاتى رأينه راودنه عن نفسه كذلك فاجتمعت عليه الهموم من كل جانب فكأن كل النساء راودنه لذا كان العموم أولى

أما الآية ٥٠ من يوسف وهى قوله تعالى « قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ان ربى بكيدهن عليم » •

فالقائل هنا يوسف والمقول له وهو رسول الملك والسر فى عدم خروجه من السجن دون أن تظهر براءته ، هو أن يتوقى عيون الناس الذين يطاردونه بذنب لم يفعله (١١٦) • ويلاحظ أنه ترفق فى طلبه فلم يقل للرسول اسأل الملك أن يفتش عن هؤلاء النسوة ، خوفا من المنع وعدم التمهيد للبراءة وكشفها (١١٧) • ولوحظ أنه اقتصر على ذكر المقطعات أيديهن وذلك لحسن وكرم أدبه من جهة ولم يصفهن بالمراودة طمعا فى شهادتهن لصالحه • كما أنه لم يذكر امرأة العزيز خوفا من مكرها به ثانية (١١٨) • وقوله « ان ربى بكيدهن عليم » •

---

(١١٤) الكشاف ج ٢ ص ٣١٩ • والقرطبى ج ٩ ص ١٨٥ •
(١١٥) القرطبى ج ٩ ص ١٨٥ •
(١١٦) القرطبى ج ٩ ص ١٨٥ •
(١١٧) القرطبى ج ٩ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ •
(١١٨) الألوسى ج ١٢ ص ٢٥٧ •

ايحاء ببعد المغور لهذا الكيد الذى يعلمه ربه أو أنه اشارة الى براءته التى يعلمها الله وما صنعته من كيد معه أو أنها جملة خبرية توحى بالوعيد لهن فعلمه تعالى بكيدهن يستلزم عقابهن (١١٩) .

وبذا تتآزر معانى الدهاء والخبث ولطف الحيلة وبراعة التخلص من فعل الفاحشة ، حول لفظة الكيد فى تلك الآيات .

جنبنا الله السوء وحفظنا وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(١١٩) الكشاف ج ٢ ص ٣٢٦ .